

الحرب والسلام

ليو تولستوى

الجزء الخامس

ترجمة: ادوار الخراط



الهيئة المصرية العامة للكتاب

ليوتولستوى

الحرب والسلام

الجزء الخامس

ترجمة: ادوار الخراط



الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة :

ا . د سمير سرحان

رئيس التحرير :

جمال الغيطانى

مدير التحرير

سعيد عبد الفتاح

الغلاف

والتصميم الجرافيكى

للفنان : محمود الهندى

الكتاب الخامس

الفصل الأول

بارح بيير موسكو إلى بطرسبرج بعد حديثه ذاك مع زوجته . وفي محطة نورزوك لم تكن ثم جياد ، أو لم يشأ ناظر المحطة أن يوفرها له . فلم يكن لبيير مناص من الانتظار . وقعد على الأريكة الجلدية ، أمام مائدة مدوّرة ، دون أن ينضو عنه ملابسه ، ووضع قدميه الضخمتين . في حذاءيهما الفوقي ، على المائدة وطفق يفكر تفكيراً عميقاً .

سأله وصيفه :

— أنُدخل لك الحقيبة ؟ ونهيء فراشاً ، ونصنع الشاي ؟

فلم يحر بيير جواباً فلا هو قد سمع ولا رأى شيئاً . كان قد أخذ يفكّر منذ المحطة السابقة ، وما زال يفكّر ، في مسألة بعينها : مسألة بلغ من خطرها أنه لم يجعل بالاً لما كان يدور حوله . لم يكن يعنيه في شيء أن يصل إلى بطرسبرج مبكراً أو متأخراً ولا أن تُهيأ له وسائل الراحة في المحطة ، بل كان بقاؤه هناك ساعات قلائل ، أو كل ما بقي له من حياة ، على السواء شيئاً لا خطر له بإزاء ما كان يشغل فكره .

ودخل إلى الغرفة ناظر المحطة ، وزوجته ، والوصيف وامرأة فلاحة تبيع أنسجة موشّاة من تورزوك ، يعرضون خدماتهم . فنظر إليهم بيير من فوق نظارته ، دون أن يغير شيئاً من وضعه الذي لا اهتمام فيه ،

أعياه أن يفهم ماذا يريدون ، وكيف يواصلون الحياة دون أن يصلوا إلى حل ٍ لتلك المشاكل التي كانت تستغرقه . كانت قد استأثرت به أفكار بعينها منذ يوم أن عاد من سوكولنيكي بعد المبارزة ، وقضى تلك الليلة الأولى أرِقاً ، من شدة مخض الألم . على أن تلك الأفكار قد استبدت به الآن ، عاتية ، في وحدة رحلته . وأياً ما كانت أفكاره ، فقدكانت ثم مسائل بعينها تعاوده دون أن يسعه أن يبلغ بها إلى حل ، ولا يسعه مع ذلك أن يكف عن أن يُسائل بها نفسه ـ كما لو كان محور اللولب الذي يُبقي على خيانه موصولة . قد هاض ، فلا اللولب يتقدم ولا ينكص ، بل يظل على دورانه ، في غير ما طائل ، في موضع بعينه .

جاء ناظر المحطة ، وأخذ ، في اتضاع ، يرجو صاحب السعادة أن ينتظر ساعتين لا أكثر ، وسوف يتيح لسعادته أن يأخذ خيل البريد ، مهما كانت النتائج .. وكان جلياً أنه كاذب ، ويريد أن يحصل من المسافر على المزيد من المال .

ساءل پيير نفسه :

ــ أذاك خير أم شر ؟ خيرٌ عندي ، وعند مسافر آخر شرٌّ ، وهو عنده شيء لا معدى عنه ، فهو يحتاج مالاً لطعامه . قال لي أن ضابطاً ضربه في ذات مرة لأنه سمح لمسافرٍ عادي من عامة الناس أن يأخذ خيل البريد . لكن الضابط إنما ضربه ، لأنه كان يبغي مواصلة رحلته بأسرع ما يُستطاع .

وواصل الحديث إلى نفسه :

ــ وأنا أطلقت الرصاص على دولوخوف لأنني كنت أرى أن قد نالتني إهانة . وأُعدم لويس السادس عشر لأنهم رأوه مجرماً ، وبعد عام أعدموا مَنْ أعدموه ـ للسبب بعينه . فما الشر ؟ وما الخير ؟ ماذا ينبغي للمرء أن يحب وأن يكره ؟ فيم يعيش المرء ؟ وما أنا ؟ ما الحياة ، وما

الموت ؟ ما القوة التى تحكم ذاك جميعاً ؟

لم تكن ثم إجابة لسؤال من هذه الأسئلة ، إلا إجابة واحدة ، وليست تلك بإجابة منطقية ، ولا هى إجابة عنها بالمرّة . وكانت الإجابة : ستموت وينتهى كل شىء . ستموت ، وتعرف كل شىء ، أو تكفّ عن السؤال. لـكن الموت أيضاً شىءٌ مروع .

جاءت البائعة التورزوكية تعرض سلعتها بصوتٍ باكٍ شاكٍ ، وبخاصة خُفاً من جلد الماعز . فهجس فى خاطره :

— عندى مئات من الروبلات لا أعرف ما أصنع بها وهى تقف فى عباءتها الخَلِقة تنظر إلىّ على استحياء . وفيم تريد النقود ؟ كما لو كانت تلك النقود بقادرة على أن تزيد من سعادتها أو راحة بالها مثقال ذرّة . أيمكن لشىء فى العالم أن يبعدها أو يبعدنى عن أن نكون ضحية للشر والموت ؟ الموت الذى يُنهى كل شىء ، ولزامٌ أن يأتى اليوم أو غداً ـ ولن يكون ذلك ، على أى حال ، إلا لحظة عابرة بإزاء الأبد .

وأخذ يدير اللولب المهيض حول محوره ، مرة أخرى ، فدار مرة أخرى ، فى غير طائل ، لايريم عن موضع بعينه .

قدم له خادمه رواية لم تفتح نصف صفحاتها بعد ، مكتوبة فى صيغة رسائل ، بقلم مدام دى سوزا (*) . وأخذ يقرأ عن آلام من تدعى إميلى دى مانسفيلد ، وكفاحها فى سبيل الفضيلة . فدار بذهنه :

— ولِمَ قاومت صاحبها الذى يعالج أن يغويها ، طالما كانت تحبه ؟ لا بد أن الله لم يضع فى قلبها رغبة ما على غير إرادته . امرأتى ـ امرأتى

(*) مدام دى سوزا (١٧٦١ — ١٨٣٦) كان زوجها قد أعدم فى الثورة الفرنسية ، فهاجرت الى ألمانيا وانجلترا ، وعكفت على كتابة الروايات . كتبت « إميلى وألفونس » فى ١٧٩٩ .

السابقة ـ لم تكن تقاوم ، وعساها كانت محقة . فلم ينكشف شىء ، ولا عُرف شىء . كل ما فى طاقتنا أن نعرفه أننا لا نعرف شيئاً . تلك ذروة المعرفة البشرية .

وبدا له كل شىء ، فى داخله وحواليه ، مضطرباً ، منفّراً ، لامعنى له . على أن پيير كان يجد نوعاً من الرضا ، يكبّده العذاب وينيله الراحة معاً ، فى عزوفه عن كل ما يحيط به من ظروف ، ونفْرته منها .

قال ناظر المحطة وهو يدخل إلى الغرفة يتبعه مسافر آخر عوّقه الافتقار إلى الخيل أيضاً :

ـ تسمح لى سعادتك أن أسألك أن تفسح قليلا لهذا السيد .

كان القادم الجديد رجلا شيخاً أصفر الوجه مغضنه ، كبير المنكبين ، وقصير القامة ، يرتخى حاجباه الأشمران الأشيبان فوق عينين متألقتين تضربان إلى لون أعفر غير محدد .

فنزع پيير قدميه من على المائدة ، ووقف ، وتمدد على الفراش الذى هُيىء له ، وهو يرمق الوافد الجديد من حين لآخر ، وقد أخذ هذا يخلع ما كان يتلفف به، منهكا يعاونه أحد الخدم ، وعلى وجه المسافر جهامة وإرهاق، وهو لا ينظر إلى پيير . وجلس المسافر ، وقد أبقى فى ساقيه الهزيلتين المتهضمتين حذاء عالياً من اللباد وعلى جسمه سترة خَلِقة من جلد الغنم مكسوة بقماش من النتكين . وأسند إلى الأريكة رأسه الكبيرة بصدغيها العريضين وشعره المجزوز، ونظر إلى بيزوخوف . فاسترعى پيير ذلك التعبير النافذ، الصارم ، الأريب الفطن فى نظرته . وأحس رغبه أن يتكلم إلى الغريب ، ولكنه عند ما قرّ عزمه على أن يسأله عن حال الطرُق ، كان المسافر قد أغمض عينيه . كانت يداه الضامرتان مطويتين ، ولاحظ پيير فى أحد أصابعه خاتماً كبيراً من الحديد الزهر . وعليه ختم على شكل جمجمة . جلس الغريب دون أن يبدى حراكاً ، يستريح ، أو كما يلوح

لبير ، غارقاً فى تأمل هادىء عميق . وكان خادمه أيضاً شيخاً مغضناً ، أصفر الوجه ، لا لحية له ولا شارب ، لا لأنه حليق ، بل لأنه لم تنمُ له ، فما هو جلىّ ، لحية ولا شارب . وكان الخادم الشيخ النشط يخرج وعاء الشاى ، ويهيء للمسافر شيئاً من الشاى . فأتى بساموفار يغلى فيه الماء . وعند ما هُىء كل شىء فتح الغريب عينيه ، واتجه إلى المائدة ، وملأ قدحاً من الشاى لنفسه ، وآخر للشيخ الأمرد وأعطاه إياه . فأخذ بيير يستشعر حساً بالقلق ونُبوّ الراحة ، وحاجة ، بل ضرورة محتومة ، لأن يجاذب الغريب أطراف الحديث .

وأعاد الخادم قدحه مقلوباً ، ومعه قطعة من السكر لم يأت عليها (*) ، وسأل عما إذا كان يراد منه شىءٌ آخر .

قال الغريب :

— لا ، أعطنى الكتاب .

فأعطاه الخادم كتاباً ظنه بيير من كتب التعبد ، واستغرق الغريب فى قراءته . كان بيير ينظر إليه . وفجأة ، طوى الغريب كتابه ، بعد أن وضع فيه علامة ، واستند مرة أخرى بذراعيه إلى ظهر الأريكة ، واتخذ جلسته السابقة ، مغمض العينين . كان بيير ينظر إليه ، ولم يتح له الوقت أن يدير عنه بصره عند ما فتح الغريب عينيه ، وأحدّ إليه البصر ، مواجهة ، بنظرته الثابتة الصارمة .

فأحسّ بيير بالاضطراب والارتباك ، وودّ لو تحامى هذه النظرة ، لكن العينين المتألقتين كانتا تأسرانه فلا يطيق لها دفعاً .

(*) كان الفلاحون والأقنان الروس يعيدون أقداح الشاى مقلوبة ، دلالة على أنهم لم يعودوا يطلبون منه المزيد ، وكانوا لا يذيبون السكر فى الشاى ، على سبيل الاقتصاد ، بل يقضمون منه قضمات صغيرة مع الشاى .

الفصل الثالث

قال الغريب بصوت مرتفع متأنٍ :

— لي السرور أن أخاطب الكونت بيزوخوف، إن لم أكن مخطئاً .

فنظر إليه پيير ، صامتاً ، متسائلا ، من فوق نظارته .

واستطرد الغريب :

— سمعت عنك يا سيدى العزيز ، وعن نكبتك .

وبدا أنه يضغط على الكلمة الأخيرة ، كأنما ليقول : نعم ، نكبة ..! سمّها ما شئت ، أما أنا فأعرف أن ما حدث لك فى موسكو كان نكبة .

— وأنا آسف لذلك جداً ، يا سيدى العزيز .

فتضرج وجه پيير ، ووضع ساقيه من على السرير إلى الأرض فى عجلة ، وانحنى إلى الأمام ، ناحية الشيخ ، بابتسامة مغتصبة خجِلة .

— لم أذكر ذلك على سبيل الفضول ، يا سيدى العزيز ، بل لأسباب أكثر خطراً .

وكفّ لحظة ، وما زال يحدّق إلى پيير ، وتحرك إلى جنب على الأريكة ، ليومىء إليه أن يتخذ مجلسه بجانبه . فأحس پيير بنفسه عزوفاً عن أن يتحدث إلى هذا الشيخ ، لكنه خضع له ، على رغمٍ منه ، وأقبل فجلس إلى جواره .

واستطرد الغريب :

— أنت غير سعيد يا سيدى العزيز. أنت شاب ، وأنا شيخ . وأحب أن أساعدك ما وسعنى ذلك

قال پيير بابتسامة مغتصبة :

— نعم ، نعم ..! إننى ممتن لك جداً . من أين تسافر ؟

لم يكن وجه الغريب وجهاً أنيساً بشوشاً ، بل كان بارداً وصارماً .

ولكن وجهه وكلماته ، على الرغم من ذلك، كانت تجتذب پيير ، فلا يملك لها دفعاً .

قال الشيخ :

— على أنك إن كنت لا تحب أن تتكلم إلىّ ، لأى سبب من الأسباب قُل ذلك ، يا سيدى العزيز !

وابتسم فجأة ، بطريقة ليست منتظرة ، أبويّة ورقيقة .

قال پيير :

— لا ، لا أبداً .. على العكس يسرنى جداً أن أتعرف عليك .

ورمق يدى الغريب مرة أخرى . ودقق النظر فى الخاتم ذى الجمجمة — علامة الماسونيين . وقال :

— اسمح لى أن أسألك ، أنت ماسونى ؟

قال الغريب ، وهو ينظر فى عينى پيير ، نظرة أعمق فأعمق :

— نعم ، إننى أنتمى إلى أخوّة الماسونيين الأحرار . وباسمهم، وباسمى ، أمد لك يداً أخوية .

قال پيير مبتسما ، وهو يتراوح بين الثقة التى توحى بها إليه شخصية الماسونى ، وعادته التى ألفها فى السخرية بعقائد الماسونيين :

— أخشى أننى بعيد جداً عن فهم ... كيف أقول ذلك ..؟ أخشى أن طريقتى فى النظر إلى العالم مضادة لطريقتكم ، وأننا لن نفهم أحدنا الآخر .

قال الماسونى

— إننى أعرف وجهة نظرك . وتلك النظرة للحياة التى تذكرها ، وتظنها نتيجة لجهودك الفكرية الخاصة ، هى النظرة التى يعتنقها أغلبية الناس ، وهى الثمرة التى لا تختلف ، للكبرياء ، والتراخى ، والخمول ، والجهل . اغفر لى يا سيدى العزيز ، ولكنى لو لم أكن أعرف ذلك لما

بدأنك بالخطاب . إن نظرتك للحياة وهمٌ يؤسف له .

فقال پيير بابتسامة طفيفة :

ــ بالضبط كما قد افترض أنكم واهمون .

قال الماسونى ، وقد أخذت كلماته تسترعى پيير، أكثر فأكثر ، بدقتها وتماسكها :

ــ لا ينبغى لى أبداً أن أجرؤ على القول بأننى أعرف الحق . ما من أحد فى طاقته أن يدرك الحق بمفرده . وإنما يوضع الحجر على الحجر ، يتعاون فى ذلك الجميع ، ملايين الأجيال من جدنا الأعلى آدم حتى وقتنا هذا ، لكى يقام ذلك المعبد الذى يَخلق به أن يكون البيت الحق للا له المظيم .

وأغمض عينيه .

قال پيير ، آسفاً ، بمشقة ، وهو يستشعر أن من الجوهرى أن يقول كل الحق :

ــ ينبغى أن أقول لك أننى لا أومن ... لا أومن بالله .

فأحدّ الماسونى النظر إلى پيير، وابتسم كما يبتسم الغنى، صاحب الملايين إلى رجل فقير قال له أنه لا يملك ــ هذا المسكين ــ تلك الخمسة الروبلات التى سوف تسعده .

قال الماسونى :

ــ أنت لا تعرفه يا سيدى العزيز . ليس فى مقدورك أن تعرفه ، أنت لا تعرفه . ولذلك فإنك شقى .

فوافق پيير :

ــ نعم ، نعم ، إننى شقى ، ولكن ماذا بوسعى أن أفعل ؟

فقال الماسونى بصوت صارم ، فيه رعشة :

ــ أنت لا تعرفه ، يا سيدى العزيز ، ومن ثم فأنت شقى جداً ، أنت

لا تعرفه ، لـكنه هنا ، إنه فيّ ، إنه فى كلماتى ، إنه فيك ، بل فى كلمات التجديف تلك التى نطقت بها الآن .

وأقصر لحظة ، وتنهد ، وهو يعالج ، فيما هو جلى ، أن يهدىء من جيَشان نفسه ، وقال بهدوء :

— لو لم يكن ، لما كنا أنا وأنت ، نتحدث عنه ، يا سيدى العزيز . عم ، وعمن نتكلم ؟

وسأل فجأة ، وفى صوته نشوة وسلطة جذلة متهللة :

— من ذاك الذى أنكرته ؟ من اخترعه . إن لم يكن موجوداً ؟ م جاءت فكرتك عن وجود مثل هذا الـكائن الذى لا يمكن فهمه ؟ لم تصورت ، ولم تصور العالم كله ، فـكرة وجود مثل هذا الـكائن الذى لا يمكن أن يفهم ،كائن له كل القدرة ، خالد ، أزلىّ ، لا متناهٍ فى كل صفاته ؟

وتوقف ، وبقى صامتاً برهة طويلة .

ولم يكن فى استطاعة پير أن يقطع هذا الصمت ، ولا هو رغب فى ذلك .

واستأنف الماسونى يقول ، وهو لا ينظر إلى پير . بل ينظر أمامه مواجهة ، ويقلّب صفحات كتابه بيديه الشائختين اللتين لم يُطق أن يبقيهما ساكنتين ، من فرط انفعاله .

— لو أنه كان رجلا وشككت فى وجوده لاستطعت أن آتيك به ، واستطعت أن آخذه من يده وأريك إياه ولـكن كيف يتأتى لى ، وأنا إنسان فانٍ لا قيمة لى ، أن أظهر مقدرته الكلية ، ولا نهائيته ، وكل رحمته ، لأعمى ، أو لشخص يغمض عينيه حتى لا يراه ولا يفهمه ، ولا يرى ، ولا يفهم حقارة نفسه وخطاياه ؟

وتوقف مرة أخرى ، واستطرد بابتسامة مزدرية ربداء :

— من أنت ؟ أنت تتوهم أنك حكيم لأنك استطعت أن تنطق بكلمات التجديف تلك ، وأنت أكثر حمقا وعزوفاً عن العقل من طفل صغير

يلعب بأجزاء ساعة صُنعت بمهارة ، ويجرؤ على القول بأنه لا يفهم جدواها، ولا يؤمن بالصانع الذى سوَّاها . أن تعرفه أمرٌ شاق . منذ دهور طوال ، منذ جدنا الأعلى آدم حتى يومنا هذا ، ونحن نجهد فى أن نبلغ تلك المعرفة ، وما زلنا بعيدين بُعداً لا نهائياً عن هدفنا ، ولكننا فى قصورنا عن الفهم لا نرى إلا ضعفنا ، وعظمته ...

كان بيير يصغى ، جيَّاش القلب ، ويحدق إلى وجه الماسونى بعينيه الساطعتين ، لا يقاطعه ولا يسائله ، بل يؤمن ، بكل روحه ، بما يقوله الغريب . وسواءٌ كان يسلم بالحجج الحكيمة التى تتضمنها كلمات الماسونى، أو يؤمن إيمان الأطفال بلهجة المتكلم الصادرة عن يقين وصدق ، أو رعشة صوته الذى كان ينهار أحياناً ، أو هاتين العينين اللامعين العريقتين اللتين شاختا وهما على ذلك اليقين ، أو صلابة حسه الراسخ برسالته الهادئة ويقينه منها ، وقد كانت تشع من كيانه جميعاً ، واسترعت بيير ، على الأخص، بتناقضها مع قنوطه وخوره ، سواء كان هذا أو ذاك ، فقد كان بيير يتوق بكل روحه ، للايمان ، وكان يؤمن فعلا ، ويحس شعوراً بهيجاً بالراحة ، وتجدد القوى ، والعودة إلى الحياة .

قال الماسونى :

— ليس يُدرك بالعقل ، بل بالحياة .

قال بيير ، وهو يحس ، فى جزع ، شكوكه تتيقظ من جديد :

— لست أفهم ...

كان يخشى أن يجد أى افتقار إلى الوضوح ، وأى وهن ، فى حجج الماسونى ، كان يجزع من ألا يكون فى مقدوره الإيمان به .

— لست أفهم كيف أن عقل الإنسان لا يستطيع أن يدرك المعرفة التى تتكلم عنها ؟

فابتسم الماسونى ابتسامته الابوية الأنيسة . وقال :

— إن أسمى الحكمة والحق مثل أنقى السوائل التى قد نسعى إلى استخلاصها . أيمكننى أن أتلقى هذا السائل النقى الصافى فى وعاء مشوب، ثم أرى فى نقاوته رأياً ؟ ما من سبيل إلى أن استبقى شيئاً من نقاء السائل الذى أتلقاه إلا بتطهير دخيلة نفسى .

فقال پيير فى بهجة :

— نعم ، نعم ، هو ذلك .

— إن أسمى الحكمة لا تنبنى على العقل وحده ، ولا على تلك العلوم الدنيوية من طبيعة وتاريخ وكيمياء ونحوها ، وهى التى تتقاسم المعرفة العقلية . إن أسمى الحكمة واحدة . وليس للحكمة السامية إلا معرفة واحدة — معرفة الكل — المعرفة التى تفسر الخليقة كلها وموضع الإنسان منها. ولزام لتلقى هذه المعرفة أن يطهر المرء ويجدد دخيلة نفسه ، وإذن فلزامٌ أن يؤمن المرء ، ويصل بنفسه إلى الكمال ، قبل أن يقوى على المعرفة . وللبلوغ إلى تلك الغاية عندنا الضوء المسمى بالضمير ، وقد غرسه الله فى نفوسنا .

فوافق پيير قائلا :

— نعم ، نعم .

— فانظر إلى دخيلة نفسك بعين الروح ، وسل نفسك هل أنت راضٍ عن نفسك . ماذا بلغت واعتمادك على العقل وحده ؟ ما أنت ؟ أنت شاب ، أنت غنى ، أنت ذكى ، أنت مثقف . فماذا صنعت بكل هذه الهبات الحسنة؟ أراض أنت عن نفسك وعن حياتك ؟

فتمتم پيير ، مجفلا :

— لا ، إننى أمقت حياتى .

— أنت تمقتها . فغيّرها إذن . طهر نفسك وسوف تنال الحكمة إذ تتطهر . انظر حياتك، ياسيدى العزيز . كيف أنفقتها ؟ فى العربدة الصاخبة

والمجون ، تأخذ من المجتمع كل شيء ولا ترد له شيئاً . لقد أصبحت صاحب ثروة . فكيف أخذت منها ؟ ماذا صنعتَ لقريبك ؟ هل فكرت مرة فى عشرات الآلاف من أقنانك ؟ هل مددت لهم يد المعونة فى الجسم أو فى الروح ؟ لا ..! بل أخذت من كدهم لتحيا حياة الفجور والسرَف ، هذا ما فعلت . هل اخترت منصباً تستطيع فيه أن تؤدى خدمة لقريبك؟ لا ..! أنفقت حياتك فى الخمول . ثم تزوجت ، يا سيدى العزيز ـ أخذت على عاتقك مسئولية هداية امرأة شابة ، فماذا صنعت ؟ لم تساعدها على أن تجد طريق الحق ، يا سيدى العزيز ، بل دفعت بها إلى هاوية الخداع والختَل والتعس . وأهانك رجل ، وأطلقت عليه النار ، وتقول أنك لا تعرف الله ، وأنك مقت حياتك . ليس فى ذلك من غرابة ، ياسيدى العزيز ..!

وبعد هذه الكلمات أسند الماسونى ذراعيه مرة أخرى إلى ظهر الأريكة ، وأغمض عينيه ، كما لو كان خطابه الطويل قد أرهقه . ونظر بيير إلى ذلك الوجه العتيق ، الصارم ، الذى لا حراك فيه ، ويوشك ألا تكون فيه حياة ، وحرك شفتيه دون أن يند عنهما صوت . كان يود أن يقول : نعم ، حياة شريرة ، خاملة ، حقيرة ..!

لكنه لم يجرؤ أن يقطع الصمت .

تنحنح الماسونى بصوت أجع ، شأن الشيوخ ، ثم نادى خادمه .

وسأل دون أن ينظر إلى بيير :

— ماذا عن الجياد ؟

أجاب الخادم :

— جاءت الخيول البديلة للتو . ألن تستريح هنا ؟

— لا ، قل لهم أن يلجموا الخيل .

فدار فى ذهن بيير ، وهو ينهض خافض الرأس :

— أيمكن حقاً أن يمضى ، ويتركنى وحدى ، دون أن يقول لى كل

شيء ، ودون أن يعد بأن يساعدني ؟

وأخذ يذرع الغرفة ، وهو يرمق الماسوني من حين لآخر ، ويفكر :

— نعم ، لم يخطر لي ذلك من قبل ، لكني عشت حياة فاسقة ماجنة حريّة بالاحتقار ، على الرغم من أنها لم تكن لتروق لي ، ولم أكن لأريدها . لكن هذا الرجل يعرف الحق ، ولو أنه شاء لكشف لي عنه .

وود بيير أن يقول ذلك للماسوني ، لكنه لم يجرؤ . فلما حزم المسافر أمتعته ، بيدين مدربتين ، أخذ يزرر سترته . وعند ما فرغ ، التفت إلى بيزوخوف ، وقال بنبرة من حسن الأدب ، خالية من الاهتمام :

— أين تذهب الآن ، يا سيدي العزيز ؟

فأجاب بيير بصوت صبياني متردد :

— أنا ..؟ أنا ذاهب إلى بطرسبرج . إنني أشكرك . وأوافق على كل ما قلت . ولكن لا تظن أنني على كل هذا الشر . إنني أرغب بكل روحي أن أكون على ما تريده لي أن أكون ، لكنني لم أتلق عونا من أحد أبدا .. ولكنني أنا الملوم ، بخاصة ، عن كل شيء . ساعدني ، علمني ، ولعلني ...

ولم يستطع بيير أن يستمر . فغص بريقه ، وأشاح ببصره .

بقي الماسوني صامتاً برهة طويلة ، وهو ، فيما هو واضح ، يمعن الفكر . ثم قال :

— إنما العون من الله وحده . على أن ما تستطيع جماعتنا أن تقدمه لك من عون سوف تفعل ، يا سيدي العزيز . أنت ذاهب إلى بطرسبرج . قدم هذا للكونت ويللارسكي .

وأخرج مذكرته ، وكتب بضع كلمات على صفحة كبيرة من الورق مطوية أربع .

— واسمح لي أن أسديك شيئاً من نصح . عند ما تصل العاصمة ، فأول ما تفعل أن تفرد بعضاً من الوقت للوحدة ، واختبار النفس ،

ولا تستأنف طريقتك الماضية فى الحياة . أرجو لك الآن رحلة طيبة يا سيدى العزيز .

ولما رأى خادمه يدخل أضاف :

— وأرجو لك النجاح .

كان المسافر — كما رأى پيير من دفتر ناظر المحطة — هو چوزيف ألكسيڤتش بازدييف . كان بازدييف من أشهر الماسونيين الأحرار المارتينيين، حتى على عهد نوڤيكوف(*). وبعد أن مضى بفترة طويلة، لم يأو پيير إلى الفراش ، ولم يطلب إعداد الخيل ، بل راح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، يتأمل ماضيه الحافل بالرذيلة ، ويصوّر لنفسه المستقبل الفاضل السعيد الذى لا تشوبه شائبة ، وقد بدا له سهلا يسيراً ، وفى نفسه حسّ ملؤه النشوة المستغرقة بأنه يبدأ من جديد . ولاح له أنه إنما كان شريراً ، لأنه نسى ، بشكل ما ، مدى مُتعة أن يكون المرء فاضلا . ولم يعد فى روحه أثر لشكوكه وريبه السابقة . وكان يؤمن إيماناً راسخاً فى إمكان الأخوة بين الناس وقد وحّدتهم غاية واحدة : أن يُساندوا أحدهم الآخر فى طريق الفضيلة ، ذلك كيف تمثلت له الماسونية .

(*) كان . ى . نوڤيكوف (١٧٤٤ — ١٨١٨) قد اتخذ مقره فى موسكو وأصبح ماسونيا نشطاً فى ١٧٧٩ ، وعنى على الأخص بالتعليم الشعبي ونشر المؤلفات التثقيفية . وفى ١٧٩٢ أغلقت الحكومة مؤسسة تثقيفية كان قد أنشأها ، واعتقل فى قلعة شلوسلبرج عدة سنوات . ولم يحاول بعد الافراج عنه أن يقوم بعمل ما فى الحياة العامة . وكان المارتينيون ، فى عهد نوڤيكوف ، جمعية من الماسونيين الروس أنشئت فى ١٧٨٠ ، وأطلق عليها اسم الفليسوف الثيوصوفى ل . ك . دى سان مارتين ، وهو ضابط كتب بعض الكتب الصوفيه

الفصل الثالث

عند ما وصل پيير إلى بطرسبرج لم يتح لأحد أن يعرف بمقدمه ، ولم يذهب إلى أى مكان ، وقضى أيامه بطولها يقرأ توماس أ كمپيس ، وقد أرسل إليه مجهول كتاب هذا الأخير . كان مُدْركا طيلة الوقت لشىء واحد أثناء قراءته الكتاب : وهو البهجة التى لم يكن يعرفها حتى ذلك الحين ، بهجة الإيمان بإمكان بلوغ الكمال ، وإمكان الحب الأخوى النشط بين الناس ، تلك البهجة التى كشف له عنها چوزيف ألكسييڤتش . وبعد أسبوع من وصوله ، جاء إليه الكونت البولندى الشاب الكونت ويللارسكى ، وكان پيير قد عرفه معرفة سطحية فى مجتمعات بطرسبرج ، ودخل إلى غرفته مساء ، ملتزماً مظاهر الاحتفال والاهتمام ، بذلك الأسلوب الرسمى الذى اتخذه شاهد دولوخوف عند ما زاره .

وبعد أن أغلق الباب وراءه ، واقتنع بأنْ لا أحد غيرهما فى الغرفة ، قال لپيير ، دون أن يجلس :

— جئت إليك برسالة ، وإننى أتقدم إليك بعرض . قدّم شخص يشغل مركزاً سامياً جداً فى جماعتنا طلباً عنك ، لإلحاقك بها قبل المهلة المعتادة من الزمن ، ورشحنى لأكون عرّابك . إننى أرى فى تلبية رغبة هذا الشخص واجباً مقدسا . أتريد ان تلتحق باخوة الماسونيين الأحرار ، تحت عرابتى ؟

فدهش پيير للهجة هذا الرجل الباردة الصارمة ، وكان قد التقى به فى حفلات الرقص فيما قبل ، باسماً دائماً فى بشاشة وإيناس ، وفى صحبة ألمع السيدات .

وقال :

— نعم . إننى أريد ذلك .

فأحنى ويللارسكى رأسه وقال :

— سؤال واحد آخر ، يا كونت ، أرجو أن تجيبه بكل إخلاص ، لا باعتبارك ماسونياً مستقبلا ، بل باعتبارك رجلا شريفاً : هل تخليت عن عقائدك السالفة .. أتؤمن بالله ؟

فتأمل پيير ، وقال :

— نعم .. نعم ، إننى أومن بالله .

فبدأ ويللارسكى يقول :

— فى هذه الحالة ...

لكن پيير قاطعه ، مردداً :

— نعم ، إننى أومن بالله حقاً .

فقال ويللارسكى :

— فى هذه الحالة يمكننا أن نذهب . إن عربتى تحت تصرفك .

لزم ويللارسكى جانب الصمت طيلة الوقت فى العربة . فلما سأله پيير عما يجب أن يفعل ، وكيف ينبغى له أن يجيب على مايوجه إليه من أسئلة ، لم يجب ويللارسكى بأكثر من أن إخوة أكثر منه جدارة سوف يمتحنونه ، وما على پيير إلا أن يقول الصدق .

ودخلا فناء بيت كبير كان المحفل يتخذ فيه مقره ، ورَقِيا سلماً مظلماً ، ودخلا ردهة صغيرة حسنة الإضاءة حيث خلعا عباءتيهما دون معونة من خدم . ومنها مرّا إلى غرفة أخرى . وظهر فى الباب رجل يرتدى زياً غريباً . فخطا نحوه ويللارسكى وقال له بالفرنسية شيئاً ، بصوت خفيض ، ثم مضى إلى خزانة صغيرة للملابس لاحظ فيها پيير أردية لم ير مثلها من قبل أبداً . وأخذ ويللارسكى منديلا من الخزانة وعصب به عينى پيير ، وربطه خلف رأسه ، فى عقدة اشتبكت ببعض شعر پيير . فآلمته ، ثم جذب إليه وجه پيير وقبّله ، وأخذه من يده وأفضى به إلى الأمام . كان الشَعْر المشتبك بالعقدة

يؤلم پيير ، وكان فى وجهه خطوط من الألم ، وابتسامة من الخجل . كانت ذراعاه تتدليان إلى جنبيه ، ووجهه مزموم ، وإن كان باسماً ، وكانت قامته الضخمة تتحرك وراء ويللارسكى بخطى، خجلة لا ثبات فيها .

وبعد أن قاده ويللارسكى نحو عشر خطوات ، وقف وقال :

— مهما حدث لك ، عليك أن تحتمله جميعاً برجولة ، إذا كنت قد عقدت عزمك على الانضمام إلى أخوّتنا

فأومأ پيير برأسه إيجاباً .

واستطرد ويللارسكى :

— عند ما تسمع طرقة على الباب ، ستنزع العصابة من على عينيك . أتمنى لك الشجاعة والنجاح .

وضغط على يد پيير ، وخرج من الغرفة .

فلما ترك پيير وحده ، مضى يبتسم بنفس الطريقة . وهز كتفيه مرة أو مرتين ، ورفع يده إلى المنديل كما لو كان يهم بنزعه ، لكنه تركها تسقط إلى جنبه ثانية . بدت له الدقائق الخمس التى مرت عليه وهو معصوب العينين كأنها ساعة . وأحس بالخدْر فى ذراعيه ، وأوشكت ساقاه أن تخذلاه ، وبدا له أن الارهاق بلغ به غايته . خامرته شتى المشاعر المعقدة غاية التعقيد . أحس بالخوف مما قد يحدث له ، وبالخوف ، أكثر من ذلك ، من أن يبدى مخاوفه . وأحس بالتطلع والفضول لمعرفة ما سوف يحدث ، وما سوف يكشف له عنه . لكنه ، فوق كل شىء ، أحس بالفرح ، إذ قد حانت أخيراً اللحظة التى سوف يبدأ منها طريقه إلى البعث ، وإلى الحياة الفاضلة النشطة التى كان يحلم بها منذ أن التقى بجوزيف ألكسيڤتش . سُمعت طرقات عالية على الباب ، فنزع پيير العصابة من على عينيه ، وأدار البصر حواليه . كانت الغرفة غارقة فى ظلمة سوداء ، إلا من مصباح صغير يتقد فى داخل شىء ما أبيض اللون . فاقترب پيير ، ورأى أن المصباح

يقوم على مائدة سوداء عليها كتاب مفتوح . كان الكتاب هو التوراة ، والشيء الأبيض الذي يوجد فيه المصباح جمجمة إنسانية ، بفجواتها ، وأسنانها . وبعد أن قرأ الكلمات الأولى من التوراة : « في البدء كانت الكلمة ، والكلمة كانت الله » ، دار بيير حول المائدة ، ورأى صندوقاً كبيراً مفتوحاً يملؤه شيء ما . كان نعشاً بداخله عظام . لم يندهش على الاطلاق لما رآه . فقد كان يأمل أن يدخل حياة جديدة كل الجدة ، لا تشبه حياته القديمة في شيء ، لذلك كان ينتظر أن يكون كل شيء غير مألوف ، بل أكثر إمعاناً في الغرابة مما كان يرى . جمجمة ، نعش ، التوراة : لاح له أنه كان ينتظر كل ذاك ، بل أكثر . فعالج أن يستثير عواطفه ، ونظر حواليه . وما فتىء يردد لنفسه : الله ، الموت ، الحب ، أخوة البشر . وهو يربط هذه الكلمات بأفكار غامضة ، وإن كانت بهيجة . وانفتح الباب ودخل منه شخص ما .

وعلى الضوء الخافت الذي كان بيير قد اعتاده ، رأى رجلا يميل إلى القصر . ولما كان الرجل قد جاء ، فيما هو واضح ، من النور إلى الظلمة ، فقد توقف ، ثم تحرك بخطى محاذرة نحو المائدة ، ووضع عليها يديه الصغيرتين المكسوتين بقفاز جلدي .

كان هذا الرجل القصير يرتدي مبدعة بيضاء من الجلد تغطي صدره وجانباً من ساقيه . وكان يرتدي شيئاً كالعقد ترتفع فوقه ياقة عالية مكشكشة بيضاء ، تحد وجهه الذي يميل للاستطالة ، وقد استضاء من النور المنبعث من تحته .

استدار القادم الجديد إلى بيير ، عندما صدر عن هذا الأخير حفيف هين ، وسأله :

— لم جئت هنا ؟ لم جئت هنا ، أنت الذي لا تؤمن بحقيقة النور ، ولم تر النور ؟ عم تبحث منا ؟ الحكمة ، الفضيلة ، الاستنارة ؟

فى اللحظة التى انفتح فيها الباب ، ودخل الغريب ، أحس بيير شعوراً من الرهبة والاجلال كذلك الذى كان يحسه فى صباه عند الاعتراف ، أحس نفسه فى محضر شخص غريب عنه تماماً من الناحية الاجتماعية ، لـكنه قريب إليه عن طريق أخوّة البشر . وتحرك ، بقلب خافق ، وأنفاس يكاتم بها ، نحو « الخطيب » ـ وهو الاسم الذى يعرف به الأخ الذى يهيء المريد لدخول الأخوة . فلما اقترب منه ، عرف فى الخطيب رجلاً له به معرفة سابقة ، سموليانينوف . فآلمه أن يكون القادم من معارفه ، كان يريده مجرد أخ ومعلم فاضل . فلم تواته القدرة ، فترة طويلة ، على أن يلفظ كلمة ، حتى اضطر الخطيب إلى أن يعيد سؤاله .

قال بيير بمشقة :

ــ نعم .. أنا .. أنا ... أريد البعث .

قال سموليانينوف :

ــ حسناً جداً .

ثم استطرد على الفور ، قائلا بهدوء وسرعة :

ــ ألديك أية فـكرة عن الوسائل التى ستساعدك بها جمعيتنا المقدسة على بلوغ غايتك ؟

قال بيير ، بصوت مرتعش ، وهو يعانى مشقة ما فى التلفظ بالكلمات ، نتيجة لانفعاله ، ولأنه لم يألف أن يتكلم فى المسائل العقلية المجردة باللغة الروسية :

ــ إننى .. أرجو ... الهداية .. المساعدة ... فى البعث .

ــ ما فـكرتك عن الماسونية ؟

قال بيير ، وهو يحس بالخزى لقصور كلماته عن أن ترقى إلى جلال اللحظة :

ــ يخيل إلىّ أن المـاسونية هى الإخاء والمساواة بين البشر الذين يستهدفون غايات فاضلة . يخيل إلىّ ...

قال الخطيب بسرعة ، وقد رضى فيما يبدو كل الرضا بإجابته :

ــ حسن ..! هل بحثت عن وسائل الوصول إلى غايتك فى الدين ؟

قال پيير بصوت بلغ من خفوته أن لم يسمعه الخطيب :

ــ لا ، كنت أرى الدين خاطئاً فلم أتبعه .

فسأله الخطيب ماذا يقول ، وأجاب پيير :

ــ كنت ملحداً .

قال الخطيب بعد لحظة صمت :

ــ أنت تبحث عن الحق لتقتفى قوانينه فى حياتك ، فأنت إذن تبحث عن الحكمة والفضيلة . أليس الأمر كذلك ؟

فوافق پيير :

ــ نعم ، نعم .

تنحنح الخطيب ، وعقد يديه المكسوتين بالقفاز ، على صدره ، وبدأ يقول :

ــ علىّ الآن أن أكشف لك عن الهدف الرئيسى لجمعيتنا . فإذا اتفق هذا الهدف وغايتك ، فان لك أن تنضم إلى أخوّتنا ، وتفيد من ذلك . إن الهدف الرئيسى والأول لجمعيتنا ، وعلى أساسه تستقر ، وليس بمقدور أية قوة بشرية أن تقضى عليه ، هو صيانة سرٍّ هام ، وتسليمه إلى الأجيال القادمة ... وهو سر جاء إلينا من أبعد العصور فى الماضى ، بل من الرجل الأول ــ سرّ عساه يتوقف عليه مصير الانسانية ، على أنه لما كان هذا السر من خصائصه ألا يستطيع أحد معرفته أو الإفادة منه إلا بعد تطهيرٍ طويلٍ دائبٍ للنفس ، فليس لكل امرىء أن يأمل فى بلوغه سريعاً . لذلك عندنا هدف آخر ، هو أن نهىء أعضاء جمعيتنا ، بقدر المستطاع ، لإصلاح قلوبهم ، وتطهير وتنوير أذهانهم ، بوسائل وصلتنا تقاليدها من أولئك الذين جهدوا فى الوصول إلى هذا السرّ ، وبذلك نجعلهم قادرين على تلقّيه .

إننا نحاول ، ثالثاً ، بتطهير وبعث أعضاء جمعيتنا ، أن نرقى بالجنس البشرى بأسره ، وأن نقدم له ، فى أعضاء جمعيتنا ، مثالا للورع والفضيلة ، وبذلك نحاول بكل طاقتنا أن نحارب الشر الذى يسيطر على العالم .

فردد بيير :

ـ نحارب الشر الذى يسيطر على العالم ..

وقامت فى ذهنه صورة عقلية لنشاطه المستقبل فى هذا الاتجاه . تصوّر رجالاً على الحال التى كان هو نفسه عليها منذ أسبوعين ، واتجه إليهم بخطابٍ من الدعوة والنصح والتثقيف . وتمثل أناساً أشقياء غارقين فى الرذيلة يساعدهم بالقول والفعل ، وتصور طغاةً ينقذ ضحاياهم . كان الهدف الأخير من الأهداف الثلاثة التى ذكرها الخطيب ، وهو الرقى بالانسانية ، هو الذى يجتذب بيير . أما السر الهام الذى ذكره الخطيب ، فلم يبدُ له جوهرياً ، وإن كان قد أثار فضوله ، أما الهدف الثانى وهو تطهير نفسه وبعثها فلم يكن ليهمه كثيراً إذ كان يحس ، فى تلك اللحظة ، إحساساً ساراً بأنه قد شفى حقاً كل الشفاء من ذنوبه السالفة ، وكان على استعداد لكل ما هو خير .

وبعد نصف ساعة عاد الخطيب ليقول للمُريد عن الفضائل السبع التى تتساوى مع الدرجات السبع فى هيكل سليمان ، وينبغى لكل ماسونىّ أن يرعاها وينمّيها فى نفسه . وكانت هذه الفضائل هى : «١» الحصانة : أى كتمان أسرار الجمعية «٢» الطاعة لمن هم أرقى مرتبة فى الجمعية «٣» الخُلُق القويم «٤» حب الانسانية «٥» الشجاعة «٦» الكرم «٧» حب الموت .

قال الخطيب :

ـ سابعاً ، عالج أن تكثر من التفكير فى الموت حتى تبلغ ألا تراه عدواً مرهوباً ، بل صديقاً يحرر الروح ، وقد أرهقتها مجاهدتها فى سبيل الفضائل ، من هذه الحياة المؤلمة ، ويفضى بها إلى موطن الثواب والراحة.

فلما مضى الخطيب وتركه يتأمل فى الوحدة ، دار بذهنه :

— نعم ، ذلك ما ينبغى أن يكون . ينبغى أن يكون الأمر كذلك ، لكنى مازلت من الضعف بحيث أحب حياتى التى يتبدى لى الآن فقط معناها .

على أن خمساً من الفضائل الأخرى التى استعادها پيير ، وهو يعدّها على أصابعه ، كان يحسها فى نفسه من الآن : الشجاعة ، والكرم ، والخلق القويم ، وحب الانسانية ، وعلى الأخص ، الطاعة — التى لم تكن تبدو له فضيلة حتى ، بل بهجة ومسرة . كان الآن يحس بسعادة بالغة لأن يتحرر من افتقاره إلى اتباع القوانين ، ولأن يُخضع إرادته لأولئك العارفين بالحق الذى لاريب فيه . ونسى الفضيلة السابعة ، ولم يستطع أن يتذكرها.

وفى المرة الثالثة عاد الخطيب بأسرع مما فعل فى المرة السابقة ، وسأل پيير ما إذا كان راسخ النية . وعاقد العزم على الخضوع إلى كل ما يُطلب منه .

قال پيير :

— إننى مستعد لكل شىء .

فقال الخطيب :

— علىّ أيضاً أن أخبرك أن جمعيتنا لا تلقن تعاليمها بالكلمات فقط ، بل بوسائل أخرى كذلك ، قد تكون أقوى أثراً على مريد الحكمة والفضيلة المخلص ، من مجرد الكلمات . إن هذه القاعة ، وما تراه فيها ، ينبغى لها أن تكون قد ألهمت قلبك ، إن كان صادقاً ، بأكثر مما تستطيع الكلمات أن تفعل . ولعلك ترى ، فى أثناء تلقينك المستقبل ، منهجاً مشابهاً للتنوير . إن جمعيتنا تقتفى آثار الجمعيات القديمة التى كانت تفسر تعاليمها بالشارات الهيروغليفية . الشارة الهيروغليفية هى رمز لشىء لا يمكن إدراكه بالحواس ، لكن له خصائص تشبه خصائص الرمز .

كان پيير يعرف حق المعرفة ما الشارة الهيروغليفية ، لكنه لم يجرؤ على الكلام ، بل أصغى للخطيب ، صامتاً ، وهو يحس من كل ما قال ،

أن محنته هو ، على وشك البدء .

قال الخطيب وهو يدنو من بيير :

— فإن كنت راسخ العزم ، عليّ أن أبدأ تلقينك . ودلالة على الكرم أسألك كل ما هو ثمين لديك .

فأجاب بيير، وقد افترض أنْ قد طلب إليه أن ينزل عن كل ممتلكاته :

— ولكن ليس معى هنا شىء .

— ما لديك الآن : ساعة ، نقود ، خواتم ...

فأخرج بيير كيس نقوده وساعته بسرعة ، لكنه لم يستطع ، فترة من الوقت ، أن يخلع خاتم زواجه من إصبعه المكتنز . فلما فرغ من ذلك قال الخطيب :

— دلالة على الطاعة ، أسألك أن تخلع ملابسك .

خلع بيير سترته ، وصديريته ، وحذاءه الأيسر، إجابة لتعليمات الخطيب، ونحّى الماسونى قميص بيير من جانب صدره الأيسر ، وانحنى فرفع ساق بنطلونه اليسرى إلى ما فوق الركبة . وبدأ بيير يخلع حذاءه الأيمن أيضاً، بتعجل ، وهمّ بأن يرفع الساق الأخرى من البنطلون ليوفر العناء على هذا الغريب، لكن الماسونىّ قال له ألا ضرورة لذلك ، وأعطاه خفًّا لقدمه اليسرى . وقف بيير ، يبتسم ابتسامة صبيانية محرجة ، فيها شك وسخرية بالنفس ، وقد بدت بالرغم منه على وجهه ، وتدلت ذراعاه ، وتباعدت ساقاه ، أمام أخيه الخطيب ، وانتظر الأوامر الأخرى .

قال الأخير :

— والآن ، دلالة على الاخلاص، أسألك أن تكشف لى عن شهوتك الكبرى .

قال بيير :

— شهوتى ..! كان عندى شهوات كثيرة .

قال الماسونى :

— تلك الشهوة التى دفعتك ، أكثر من كل الشهوات الأخرى ، أن تحيد عن طريق الفضيلة .

فتوقف بيير ، وهو يتلمس الردّ .

واستعاد رذائله فى ذهنه : الخمر ؟ الشراهة ؟ الخمول ؟ الكسل ؟ سرعة الاستثارة ؟ الغضب ؟ النساء ؟ — دون أن يعرف أيها يعطيه الصدارة .

وقال بصوتٍ خافت ، لا يكاد يسمع :

— النساء .

فلم يتحرك الماسونىّ ، ولم يقل شيئاً ، بعد هذه الاجابة ، فترة طويلة . ثم أقبل على بيير ، أخيراً ، وأخذ المنديل الذى كان على المائدة ، وعصب به عينيه مرة أخرى .

— أقول لك للمرة الأخيرة : أولِ نفسك كل حرصك وحيطتك ، اكبح جماح حواسّك ، واطلب البركة والنعمة ، لا فى الشهوات ، بل فى دخيلة قلبك . إن مصدر النعمة ليس فى خارجنا ، بل فى داخل أنفسنا ...

كان بيير منذ زمن طويل يحس فى نفسه بذلك الينبوع المنعش للنعمة ، وهو الآن يغمر قلبه بالبهجة والسرور .

الفصل الرابع

لم يعد الخطيب إلى القاعة المظلمة ، بل جاء بعد ذلك بقليل ، عرّاب بيير ، ويللارسكى ، ليعود به ، وقد عرفه من صوته . وأجاب بيير عن أسئلة أخرى بشأن رسوخ عزمه :

— نعم ، نعم ، إننى أوافق .

وتقدم ، بابتسامة مشرقة كابتسامات الأطفال ، وصدره المكتنز

مكشوف ، وهو يخطو خطوات خجلة غير متزنة بقدم بها خف ، وأخرى بها حذاء ، بينما كان ويللارسكى يوجه إلى صدره العارى سيفاً . وأفضى به من تلك الغرفة ، عبر ممرات تدور إلى الأمام ، وترتد إلى الخلف ، حتى أتى به أخيراً إلى أبواب المحفل سعل ويللارسكى ، فأجابته الطَرْقة الماسونية من مطارق خشبية ، وانفتحت الأبواب أمامهما . وسأله صوت أجش ـ كان پيير ما زال معصوب العينين ـ من هو؟ ومتى وأين وُلد .؟ وهلم جرا . ثم اقتيد مرة أخرى إلى مكان ما ، وهو معصوب العينين ، وفيما كان يمضيان فى طريقهما ، قيلت له حكايات رمزية عن مشقات الحجّ الذى يقوم به ، والصداقة المقدسة ، والمهندس الخالق للكون ، والشجاعة التى عليه أن يحتمل بها المشقات والأخطار . وفى خلال هذا التجوال ، لاحظ پيير أنه يقال عنه مرة «المُريد» ، ومرة أخرى « المكابِد» ، وثالثة « الطالب » ، وتصحب ذلك طرقات شتى من مطارق خشبية وسيوف . وبينما كان يُفضى به إلى شىء ما ، لاحظ تردداً وإحجاماً بين أولئك الذين يقودونه . وسمع نقاشاً هامساً بين من يحيطون به ، وأصر أحدهم على أن يُقتاد ليمشى على سجادةٍ معينة وبعد ذلك أخذوا يده اليمنى ، ووضعوها على شىء ما ، وقالوا له أن يمسك بُوصلتين ويضعهما على الجانب الأيسر من صدره باليد الأخرى ، وأن يردد ، بعد شخص يقرأ بصوت مرتفع ، قَسَم الولاء لقوانين الجمعية . وأطفئت الشموع بعد ذلك . وأوقد نوع من الكحول ، عرفه پيير من رائحته ، وقيل له أنه الآن سوف يرى الضوء الأدنى . ونزعت العصابة من على عينيه ، ورأى پيير ، على الضوء الخافت الصادر عن الكحول المحترق ، كما يرى فى الحلم ، عدة رجال يقفون أمامه ، يرتدون ميادع كتلك التى كان يرتديها الخطيب ، ويمسكون فى أيديهم سيوفاً مسدَّدة إلى صدره . ويقف بينهم رجلٌ قد تلوث قميصه الأبيض بالدم . فلما رأى ذلك پيير ، تحرك بصدره إلى الأمام ، نحو السيوف ، حتى

يطعنوه . لكن السيوف أرجعت عنه ، وعصبت عيناه على الفور مرة أخرى .

قال صوت :

— أنت الآن قد رأيت الضوء الأدنى .

ثم أضيئت الشموع ، وقيل له أنه سيرى الضوء الكامل . وأبعدت العصابة عن عينيه ثانية ، وقالت أكثر من عشرة أصوات مرة واحدة ، باللاتينية :

— Sic transit gloria mundi (*)

وأخذ پيير بالتدريج يثوب إلى نفسه ، ونظر حواليه فى الغرفة ، وما فيها من ناس . كان نحو اثنى عشر رجلا يجلسون حول مائدة طويلة مغطاة بالأسود ، وهم فى أردية كتلك التى كان قد رآها من قبل . كان پيير قد لقى بعضهم فى مجتمعات بطرسبرج . وجلس فى مقعد الرئيس شاب لا يعرفه ، يتدلى من عنقه صليب غريب الشكل . وإلى يمينه جلس القس الايطالى الذى كان پيير قد التقى به فى حفلة آنا باڤلوڤنا منذ سنتين . وكان من بين الحضور شخص من الأعيان بارز المكانة جداً ، وسويسرى كان معلماً ، فيما سبق ، عند آل كوراچين . وكانوا جميعاً يلتزمون الصمت العميق ، وهم يستمعون إلى كلمات الرئيس الذى كان يمسك فى يده بمطرقة خشبية . وكان على الحائط ضوء على شكل نجمة . وإلى أحد جانبي المائدة سجادة طرزت برسوم مختلفة ، وإلى الجانب الآخر شىء يشبه الهيكل وضعت عليه التوراة ، وجمجمة . وقامت حوله سبع شمعات كبار كتلك التى توقد فى الكنائس . وقام اثنان من الأخوة فأفضيا بپيير إلى الهيكل ، ووضعا قدميه على شكل زاوية قائمة ، وأمراه بأن يرقد ، قائلين أن عليه أن ينكب على وجهه أمام أبواب المعبد .

فهمس أحد الأخوة :

(*) هكذا يمضى مجد العالم . وكانت هذه العبارة تقال للملوك عند تتويجهم .

— يجب أولاً أن يتلق المَسْطرين .

قال آخر :

— أوه ، اسكت من فضلك !

فنظر پيير حواليه ، وقد اختلط عليه الأمر ، بعينيه القصيرتى النظر ، دون أن يطيع الأمر ، وفجأة ثارت فى ذهنه الشكوك : أين أنا ؟ ماذا أفعل ؟ ألا يسخرون منى ؟ ألن يخجلنى أن أتذكر هـذا ؟ على أن هذه الشكوك لم تدم إلا لحظة . رمق پيير الوجوه الجادة المحيطة به ، وتذكر كل ما مرّ به ، وتيقن أنه لا يستطيع الوقوف فى منتصف الطريق . وروّعه تردده ، فحاول أن يستثير إحساسه السالف بالتعبد والورع ، وانكب على وجهه أمام أبواب المعبد . وعاد إليه حقاً شعور التعبد بأقوى مما كان . فلما رقد هناك فترة من الوقت قيل له أن ينهض ، وأُلبس ميدعة بيضاء من الجلد كتلك التى يرتديها الآخرون ، وأعطى مسطريناً وثلاثة قفازات ، ثم خاطبه الأستاذ الأكبر ، فقال له أنه لا ينبغى أن يفعل شيئاً يلوث نصوع تلك الميدعة البيضاء التى ترمز للقوة والطهر ، ثم قال له ، عن المسطرين الذى لم يُفسّر له ، أن عليه واجب السعى لأن ينقى به قلبه من الرذيلة وأن يسوى به قلب قريبه فى كرم وتسامح ، ويصقله . أما القفاز الأول ، وهو قفاز رجل ، فقد قال عنه أن پيير ليس بمقدوره أن يعرف معناه ، ولـكن عليه أن يحتفظ به . أما القفاز الثانى ، وهو قفاز رجل أيضاً ، فعليه أن يرتديه فى الاجتماعات . أما القفاز الثالث ، وهو قفاز امرأة ، فقد قال عنه :

— أيها الأخ العزيز ، إن هذا القفاز النسوى لك أيضاً . أعطه للمرأة التى سوف توليها أكبر قدر من التكريم والاحترام . هذه الهبة ستكون عربوناً على نقاء قلبك ، لتلك التى سوف تختارها حتى تكون زميلتك ومساعدتك الجديرة بك ، فى الماسونية .

ثم أضاف بعد لحظة صمت :

— ولكن حذار ، أيها الأخ العزيز ، ألا يكسو هذا القفاز يدين غير نظيفتين .

وبينما كان الأستاذ الأكبر يقول هذه الكلمات خيّل لپيير أنه ارتبك . أما پيير فقد ازداد اضطرابه واختلاط الأمر عليه ، وتضرج وجهه كأنه طفل ، حتى صعدت الدموع إلى عينيه ، وأخذ ينظر حواليه فى قلق ، وتبع ذلك صمت مُحرَج .

قطع هذا الصمت أحد الأخوة الذى قاد پيير إلى السجادة ، وأخذ يقرأ له ، من كتاب مخطوط ، تفسيراً للرسوم عليها ، الشمس ، والقمر ، ومِطمار ، ومسطرين ، وحجر غير مسوّى ، وحجر مربع مسوّى ، وعمود ، وثلاثة نوافذ ... وهلم جرا . ثم أُفرد لپيير مكانٌ ، وأُظهرت له شارات المحفل ، وقيلت له كلمة السر ، وأخيراً سمح له بالجلوس . وأخذ الأستاذ الأكبر يقرأ لائحة الجماعة . وكانت طويلة جداً ، وكان پيير فى حالٍ لايتيح له فهم ما يُقرأ ، من الفرح ، والاضطراب ، والحرج . وكل ما وفق إليه أن يتتبع آخر كلمات اللائحة ، فبقيت فى ذهنه . كان الأستاذ الأكبر يقرأ :

« ونحن لا نقرّ ، فى معابدنا ، إلا بالفروق بين الفضيلة والرذيلة . حذار من أن تقيم أية تفرقة قد تخلّ بالمساواة . ولتكن سريعاً إلى نجدة أخيك أياً كان ، وانصح ذاك الذى يضل جادة السبيل ، ارفع من يقع ، ولا تُسكِنّ لأخيك حقداً أو عداوة أبداً . كن عطوفاً ، مجامِلاً . ولتوقد فى كل القلوب شعلة الفضيلة . قاسم قريبك سعادتك ، ولا تجعل الحسد يرين أبداً على نقاء تلك النعمة . اصفح عن عدوك ، ولا تثأر لنفسك إلا بأن تسدى إليه الخير . فإذا أطعت ، بهذا ، ذلك القانون الأسمى ، استعدت آثار تلك العزة العريقة التى فقدتها . »

وفرغ . فنهض وعانق پيير وقبّله . فنظر پيير حواليه ودموع الفرح

فى عينيه ، لا يعرف كيف يجيب على التهنئات والتحيات التى جاءته من معارف وصحاب من كل جانب ، لم يكن يعرف فيهم أصحاباً ، بل رأى فى كل هؤلاء الناس أخوة فحسب ، وكان يتقد باللهفة لأن يبدأ العمل معهم .

دقّ الأستاذ الأكبر بمطرقته الخشبية فجلس الماسونيون جميعاً فى أماكنهم ، وقرأ أحدهم عظة عن ضرورة التواضع .

واقترح الأستاذ الأكبر أن ينفّذ الواجب الأخير ، فمضى الرجل البارز المكانة ، وكان يحمل لقب «جامع الصدقات» . ودار على الإخوة جميعاً . وكان پيير يود لو اكتتب بكل ما لديه . لكنه خشى أن يبدو ذلك على سبيل الكبرياء والزهو ، فاكتتب بنفس المبلغ الذى دفعه الآخرون .

انتهى الاجتماع ، فلما بلغ پيير بيته أحس كما لو كاد يعود من رحلة طويلة قضى فيها عشرات السنين ، وقد تغيّر كل التغيير ، ونبذ خلفه عاداته السابقة ، وأسلوبه الماضى فى الحياة .

الفصل الخامس

كان پيير فى بيته ، غداة دخوله المحفل ، يقرأ كتاباً ، ويعالج أن يسبر غور مغزى « المربّع » الذى يرمز أحد جوانبه إلى الله ، والثانى إلى المعنويات ، والثالث إلى الماديات ، والرابع إلى اتحادهما . وكان انتباهه يشرد ، من حين لآخر ، عن الكتاب والمربّع . فيتصور لنفسه خطّة جديدة فى الحياة . كان قد سمع فى الليلة الماضية ، فى المحفل ، أن إشاعة عن مبارزته مع دولوخوف قد بلغت مسامع الامبراطور ، وأنه يحسن به أن يغادر بطرسبرج . وكان پيير ينوى أن يسافر إلى ضيعته فى الجنوب ، وأن يعنى هناك برفاهية أقنانه .

وكان يخطط لنفسه هذه الحياة الجديدة ، فى بهجة ، إذ دخل الأمير قاسيلى إلى الغرفة فجأة . وقال وهو يدخل:

ــ يا صاحبي العزيز، ماذا فعلت فى موسكو؟ لِمَ اختصمت مع هيلين يا عزيزى ؟ إنك واقع تحت تأثير الأوهـام . إننى أعرف كل شىء ، وبمقدورى أن أؤكد لك أن هيلين بريئة بإزائك براءة المسيح بإزاء اليهود .

همّ پيير بأن يجيب ، لـكن الأمير قاسيلى قاطعه :

ــ ولمَ لم تأت لى مباشرة وببساطة ، كما تأتى إلى صديق؟ إننى أعرف كل شىء ، وأفهم كل شىء . وأنت سلـكت سلوك رجل يقدّر شرفه ، ولعلك تسرعت قليلاً ، ولـكننا لن نبحث فى هذا .

وأضاف وهو يخفض صوته :

ــ ولـكن تأمل الموقف الذي تضعها وتضعنى فيه أمام أعين المجتمع ، بل أمام البلاط أيضاً .

ثم قال :

ــ إنها تعيش فى موسكو ، وأنت هنا . تذكر يا ولدى العزيز

وجذب ذراع پيير إلى أسفل :

ــ إنه سوء تفاهم لا أكثر وأظنك تشعر بهذا بنفسك . فلنكتب لها خطاباً على الفور ، وستأتى هنا ، ويُفسّر كل شىء . وإلا فلتسمح لى أن أقول لك ، يا ولدى العزيز ، إنه من المحتمل جداً أن تندم على ذلك .

ونظر إليه الأمير قاسيلى نظرة ذات مغزى ، وقال :

ــ إننى أعرف من مصادر موثوق بها أن الامبراطورة الوالدة مهتمة بالموضوع كله اهتماماً كبيراً . أنت تعرف أنها كريمة جداً مع هيلين .

حاول پيير عدة مرات أن يتكلم ، لـكن الأمير قاسيلى ، من ناحية ، لم يتح له الـكلام ، ومن ناحية أخرى ، كان پيير يخشى أن يبدأ الـكلام

بلهجة الخلاف والرفض البات ، التي عقد عزمه على أن يجيب بها حماه ، فضلاً عن أن كلمات اللائحة الماسونية « كنْ عطوفاً ومجاملاً » خطرت بذهنه فطرف بعينه ، واحمرَّ وجهه ، ونهض ثم جلس ثانية ، مجاهداً نفسه أن يفعل أشق شيء على نفسه فى الحياة : أن يواجه رجلاً بقولٍ غير لطيف ، وأن يقول شيئاً ليس فى حسبان الآخر . أياً كان هذا الآخر . كان قد أَلِف الخضوع لنبرة الأمير ڤاسيلى ، التى تنم عن اعتدادٍ بالنفس لا احتفال فيه ، حتى أحس أنه لن يستطيع الآن مقاومتها . لكنه أحس أيضاً أن مستقبله يتوقف على ما يقوله الآن ـ فإما أن يسير فى نفس الطريق القديم ، أو فى ذلك الطريق الجديد الذى أظهره عليه الماسونيون على ذلك النحو الجذّاب ، فآمن بأن فى سلوكه حياةً جديدة له .

قال الأمير ڤاسيلى مازحاً :

ــ والآن ياولدى العزيز قل «نعم» ، وسأكتب لها بنفسى . وسنذبح العجل المسمَّن .

على أنه قبل أن يفرغ الأمير ڤاسيلى من كلماته المداعبة ، تمتم بيير هامساً ، دون أن ينظر إليه ، وبغضبٍ كان من شأنه أن بدا شبهه لأبيه واضحاً :

ــ أيها الأمير ، إننى لم أطلب منك أن تأتى هنا . إذهب ، إذهب من فضلك !

وهبَّ واقفاً ، وفتح له الباب .

وردّد ، وقد دُهش لنفسه ، وسرّه أن يرى نظرة الارتباك والخوف التى بدت على وجه الأمير ڤاسيلى :

ــ إذهب ..!

ــ ماذا جرى لك ؟ أنت مريض ؟

فردّد الصوت المختلج :

ــ إذهب ..!

واضطر الأمير ڤاسيلى أن يذهب ، دون أن يتلقى تفسيراً لشيء .
وبعد أسبوع ودّع پيير أصدقاءه الجدد الماسونيين ، وترك لهم مبالغ كبيرة للصدقات . ومضى إلى ضيعته . وأعطاه إخوته الجدد خطابات إلى محفلىْ كييف ، وأوديسيا . ووعدوا بالكتابة إليه ، وهدايته فيما اختطّ لنفسه من نشاط جديد .

الفصل السادس

أسدل على مسألة المبارزة بين دولوخوف وپيير ، ستار من الكتمان ، على الرغم من صرامة الامبراطور فيما يتعلق بالمبارزات فى ذلك الحين ، ولم يلحق بالمشتركين فيها ، ولا بشهودهم ضررٌ ما . لكن قصة المبارزة ، وقد تأيدت بانفصال پيير عن زوجته ، كانت حديث المجتمع . كان پيير يُنظر إليه بعين التنازل والتعطف عندما كان ابناً غير شرعى ، وكان يُدلل ويُشاد به عندما كان أفضل مرشح للزواج فى روسيا كلها ، ثم هبط احترام المجتمع له كثيراً بعد زواجه ، عندما لم يعد للفتيات المرشحات للزواج وأمهاتهن أمل فيه ، وبخاصة أنه لم يكن يعرف كيف يكسب عطف المجتمع . ولم يكن يرغب فى ذلك ، وكانت تبعة كل ماحدث تُلقى عليه وحده الآن . وقيل أنه غيور إلى حد الجنون ، وأنه كأبيه تعتريه نوبات من الغضب المتعطش للدم . فلما عادت هيلين إلى بطرسبرج ، بعد رحيل پيير ، استقبلها كل معارفها استقبالا لم يكن ودياً فحسب ، بل كانت فيه مسحة من التوقير والاحترام ، تُعزى إلى نكبتها ، وكانت هيلين . عندما يتجه الحديث إلى موضوع زوجها تتخذ تعبيراً فيه كرامة واعتداد بالنفس ، وكانت قد اكتسبت هذا التعبير بكياستها المأثورة عنها ، وإن لم تكن تفهم مغزاه . كان هذا التعبير يوحى بأنها قد عقدت عزمها على احتمال متاعبها دون شكاة . وأن زوجها عبء ألقاه الله على عاتقها . وكان الأمير ڤاسيلى يفصح عن رأيه على نحو أوضح .

فكان إذا جاء ذكر پيير يهز كتفيه ، ويشير إلى جبهته ، ويقول :

— به لوثة طفيفة ، كنت دائماً أقول ذلك .

قالت آنا باڤلوڤنا بصدد پيير :

— قلت من أول الأمر ، قلت فى ذلك الحين ، وقبل أى شخص آخر (كانت تصر على تأكيد أولويتها) ، أن هذا الشاب الذى لاعقل عنده قد أفسدته الآراء المنحلة الشائعة فى هذه الأيام ، بل قلت ذلك فى الوقت الذى كان الجميع يطيرون به سروراً ، عندما عاد مباشرة من الخارج ، واتخذ دور « مارا » فى إحدى حفلاتى ، إن كنتم تتذكرون . وكيف انتهى الأمر؟ كنت ضد هذا الزواج منذ ذلك الحين ، وتوقعت كل ماحدث.

كانت آنا باڤلوڤنا مازالت تقيم حفلات ساهرة من نفس النوع ، حفلات كانت لها وحدها موهبة تنسيقها ، حيث تجد « صفوة المجتمع الراقى حقاً ، وزهرة المثقفين فى بطرسبرج » ، كما كانت تقول بنفسها . وكانت حفلات آنا باڤلوڤنا ، فضلا عن هذه الصفوة المنتقاة من المجتمع ، تمتاز بأنها كانت دائما تقدم شخصاً جديداً مثيراً للاهتمام إلى زوارها ، وبأن مقياس الرأى السياسى فى الأوساط المشروعة فى بطرسبرج ، لم يكن يتضح ، فى أى مكان ، بمثل الجلاء والتحديد الذى يتضح به فى هذه الحفلات .

وقرابة نهاية ١٨٠٦ ، عندما وصلت كل التفاصيل المؤلمة عن قضاء ناپليون على الجيش البروسى ، فى ڤينا وأورستادت ، وتسليم معظم الحصون البروسية ، وعندما كانت قواتنا قد عادت بالفعل إلى روسيا ، وبدأت حربنا الثانية مع ناپليون ، أقامت آنا باڤلوڤنا إحدى حفلاتها . كانت « صفوة المجتمع الراقى حقاً » تتكون من هيلين الساحرة ، وقد هجرها زوجها ، ومورتمار ، والأمير هيپوليت اللطيف الذى كان قد عاد للتو من ڤيينا ، واثنين من الدبلوماسيين ، والعمة العجوز ، وشاب كان يشار إليه فى غرفة الاستقبال تلك بأنه « رجل على جدارة كبيرة» ، ووصيفة جديدة

من وصيفات الشرف ، وأمها ، وكثير ممن هم أقل جدارة بالذكر .

وكان الشيء الطريف الذى تضعه آنا باقلوفنا أمام ضيوفها فى تلك الليلة ، هو بوريس دروبيتسكوى ، وقد وصل للتو ، بصفته رسولاً خاصاً من الجيش البروسى ، وكان ياوراً لشخصية هامة جداً

كانت درجة الحرارة ، التى يشير إليها القياس السياسىّ فى تلك الليلة هى ما يلى :

— مهما فعل ملوك أوربا وقادتها فى سبيل إرضاء بونابرت ، وفى سبيل أن يُلحقوا الضيق والإذلال بى ، وبنا بصفة عامة ، فإن رأينا عن بونابرت لن يتغير . ولن نكفّ عن أن نبدى آراءنا المخلصة فى هذا الموضوع ، ولا نملك إلا أن نقول لملك بروسيا وللآخرين : هذا ماجنت يداك ، تلك مشيئتك ياچورج داندان (*) » . هذا كل ما نملك أن نقول .!

عندما دخل بوريس إلى غرفة الاستقبال ، وقد كان هو الذى سيقدم الليلة للضيوف ، كان المدعوون جميعاً تقريباً قد التأم شملهم . وكان الحديث ، بتوجيه آنا باقلوفنا ، يدور حول علاقاتنا الديبلوماسية بالنمسا ، واحتمال عقد حلف معها .

كان بوريس قد ازداد رجولة ، وهو يبدو منتعشاً ، مورد الوجه ، رابط الجأش . ودخل غرفة الاستقبال أنيقاً فى زىّ الياوران . وأُفضى به كالمتّبع إلى العمة العجوز ليقدم لها فروض الاحترام ، ثم أعيد إلى الدائرة العامة للمدعوين .

مدت إليه آنا باقلوفنا يدها الضامرة ليقبلها . وقدمته لأشخاص كثيرين ليست له بهم معرفة . وهى تهمس له بوصف كلٍ منهم .

— الأمير هيپوليت كوراجين ، فتىساحر . مسيو كرونك قائم بالأعمال

(*) إشارة إلى مسرحية موليير الكوميدية « جورج داندان » .

من كوبنهاجن . ثم قالت ببساطة : مفكر عميق ، وقالت عن الرجل الذى كان يطلق عليه عادة ذلك الوصف :

— مسيو شيتوف . رجل على جدارة كبيرة .

كان بوريس قد استطاع ، فى خلال فترة خدمته فى الجيش ، أن يحصل لنفسه على مكانة مرموقة ، بفضل جهود آنا ميخايلوفنا ، وبفضل ذوقه ، وخصائص طبعه المتحفظ ، فأصبح ياوراً لشخصية هامة جداً ، وأرسل إلى بروسيا فى مهمة على قدر بالغ من الأهمية ، وكان قد عاد منها للتو ، بوصفه رسولا خاصاً . وكان قد اكتسب خبرة تامة بذلك القانون غير المكتوب الذى كان قد ابتهج لمعرفته فى أولمتز ، وهو القانون الذى يقضى بأن صف الضابط قد يشغل مرتبة أرفع بكثير من جنرال ، ويقضى بأن ما يحتاج إليه المرء للنجاح فى الخدمة ، ليس هو بذل الجهد ، ولا العمل ، ولا الشجاعة ، ولا المثابرة ، بل معرفة كيف يعالج المرء أولئك الذين يملكون منح المكافآت. وكان يُدهش غالباً ، هو نفسه، لسرعة نجاحه ، وعجز الآخرين عن فهم هذه الأمور . وكان من أثر هذا الاكتشاف أن تغير تماماً كل نمط حياته ، وكل علاقاته بأصدقائه القدامى، وكل مشروعاته للمستقبل . لم يكن غنياً ، لكنه كان لينفق آخر مليم معه حتى يكون آنق زياً من الآخرين ، ويؤثر أن يحرم نفسه من مسرات كثيرة عن أن يسمح لنفسه بأن يبدو رث المظهر ، أو يخرج إلى شوارع بطرسبرج فى حلة قديمة . وكان لا يصادق ، ولا يسعى لمصادقة إلا من يشغلون مكانة أرفع من مكانته ، فيسعهم إذن أن تكون لصداقتهم جدوى ، وكان يحب بطرسبرج ، ويحتقر موسكو. وكانت تسيئه ذكرى بيت آل روستوف ، وحبه الصبيانى لناتاشا . ومنذ أن سافر ليلتحق بالجيش ، لم يخط عتبة بيت آل روستوف مرة واحدة . وكان يرى فى وجوده بغرفة استقبال آنا بافلوفنا خطوة هامة إلى أعلى فى سجل خدمته. وفهم دوره على الفور . فأتاح لمضيفته أن تفيد مما تراه فيه من نواحٍ مثيرة

للاهتمام . وكان من ناحيته ،يتفحص كل وجه يلقاه ، بعناية ، ويقدر احتمالات عقد الصداقة مع كل شخص من الحضور، والمزايا التى قد تترتب على ذلك . وجلس على المقعد الذى أشير به عليه . بجانب هيلين الجميلة . وأصغى إلى الحديث الدائر .

قال القائم بالأعمال الدانمركى :

ــ إن ڤيينا ترى أن أسس الحلف المقترح لايمكن بلوغها ، حتى أن استمرار أعظم الأعمال نجاحاً لايضمن مع ذلك الوصول إليها . هذه هى بالفعل العبارة التى تستخدم فى الوزارة فى ڤيينا .

قال « المفكر العميق » بابتسامة رجل داهية :

ــ إن هذا الشك يعتبر شيئاً يدعو إلى الفخر .

وقال مورتمار :

ــ يجب أن نفرق بين الوزارة فى ڤيينا ، وامبراطور النمسا . لايمكن أن يكون امبراطور النمسا قد فكّر فى شىء من هذا القبيل ، إنما الوزارة وحدها هى التى تقوله .

فقالت آنا باڤلوڤنا :

ــ آه ، ياعزيزى الڤيكونت . إن « إيروپا » (كانت تقولها ، لسبب ما ، « إيروپا » ، كما لو كانت تلك طريقة فرنسية بالغة الدقة والفصاحة فى نطق الكلمة ، فهى تستطيع أن تسمح لنفسها باتخاذ هذا النطق عندما تتحدث إلى رجلٍ فرنسى) ، إن « ايروپا » لن تكون أبداً حليفتنا المخلصة (*)

واستطردت آنا باڤلوڤنا ، بعد ذلك ، إلى الحديث عن شجاعة ملك بروسيا وحزمه ، حتى تجذب بوريس إلى الحديث .

(*) بالفرنسية فى الاصل .

كان بوريس يصغى إلى كل من المتكلمين ، بانتباه . وهو ينتظر دوره ، ولـكنه استطاع فى خلال ذلك ، أن ينظر إلى جارته هيلين الجميلة ، عدة مرات ، والتقت عيناها ، بابتسامة ، بعينى الياور الشاب الوسيم .

ولما كانت آنا باڤلوڤنا تتحدث عن موقف بروسيا ، فقد كان من الطبيعى جداً أن تسأل بوريس أن يقصّ عليهم نبأ رحلته إلى جلوجاو ، ونبأ الحالة التى وجد عليها الجيش البروسىّ . فتكلم بوريس ، متئداً يتدبر قوله ، وقال لهم ، بفرنسية سليمة نقية ، عن دقائق متعددة رآهـا فى الجيش ، والبلاط ، وهو يحاذر من أن يفصح عن رأيه فى الوقائع التى يحكيها . واستأثر بانتباه الجميع فترة من الوقت ، وأحست آنا باڤلوڤنا أن الشىء الطريف الذى قدمته قد لقى استقبالاً حسناً من كل زوّارها . وكانت هيلين أكثر من أبدى اهتماماً بحكاية بوريس ، فسألته أسئلة عديدة عن رحلته ، وبدا عليها الاهتمام البالغ بحالة الجيش البروسى وما أن فرغ من حديثه حتى التفتت إليه بابتسامتها المعهودة .

وقالت :

— يجب ، بالضرورة . أن تأتى لزيارتى .

قالتها بلهجة توحى بأن ذلك ضرورىّ كل الضرورة لاعتبارات ما ، ليس فى وسعه أن يعرفها .

قالت :

— يوم الثلاثاء ، بين الثامنة والتاسعة . سيسرنى ذلك أعظم السرور .

وعد بوريس أن يحقق لها مشيئتهـا ، وهمّ بأن يبدأ حديثاً معها ، عند ما نادته آنا باڤلوڤنا بحجة أن عمتها تريد أن تستمع إليه .

قالت آنا باڤلوڤنا ، وهى تغمض عينيها وتومىء إلى هيلين إيمـاءة ملؤها الأسى :

— أنت تعرف زوجها بالطبع ؟ آه .. يا لها من امرأة ساحرة ، تعسة الحظ ..! لاتذكره أمامها ـ أرجوك ، لاتفعل ..! ذلك يؤلمها أشد الألم ..!

الفصل السابع

عندما عاد بوريس ، وآنا باڤلوڤنا ، إلى الآخرين ، كان الأميرهيپوليت قد استأثر بمسامعهم . وانحنى إلى الأمام ، فى مقعده المريح ، وقال :

— ملك بروسيا ..!

ولما قال ذلك ، ضحك . فالتفت إليه الجميع .

قال الأمير هيپوليت متسائلاً ، وهو يضحك مرة أخرى :

— ملك بروسيا .. ؟

ثم استند إلى ظهر مقعده ثانية ، بهدوء ، وجدّ . فانتظرت آناباڤلوڤنا أن يكمل حديثه ، لكنه بدا وقد عقد العزم تماماً على ألا يقول شيئاً أكثر مما قال ، فأخذت آنا باڤلوڤنا تحكى كيف سرق بونابرت الذى لاورع عنده ، سيف فردريك الأكبر ، فى بوتسدام .

وقالت :

— إن سيف فردريك الأكبر هو الذى ...

لكن هيپوليت قاطعها :

— ملك بروسيا ...

ولما التفتت إليه الأنظار جميعاً مرة أخرى ، اعتذر ، ولم يقل شيئا .

فعبست آنا باڤلوڤنا . وقال له صديقه ، مورتمار ، بحزم :

— هيا ، هيا .. ماذا عن صاحبك « ملك بروسيا » هذا ؟

فضحك هيپوليت ، كما لو كان يخجله أن يضحك .

— أوه . لاشيء كنت أريد فقط أن أقول ...

كان يريد أن يقول نكتة سمعها فى ڤيينا ، وكان يحاول طيلة السهرة أن يدخلها فى الحديث :

— كنت أريد فقط أن أقول أننا مخطئون ، إذا حاربنا « فى سبيل ملك بروسيا »(*)

فابتسم بوريس بعناية وحرص ، حتى يصح أن تحمل ابتسامته على محمل السخرية ، أو على محمل التقـدير للدعابة ، كيفما لقيت الدعابة من استقبال .

فضحك الجميع .

وقالت آنا باڤلوڤنا ، وهى تهز إصبعها الصـغير الضـامر فى وجه هيپوليت :

— نكتتك خبيثة جداً ، نكتة بارعة ، لكنها ظالمة .

ثم قالت :

— نحن لانحارب فى سبيل ملك بروسيا ، بل فى سبيل المبـادىء الحقة . أوه ، هذا الأمير هيپوليت الشرير ..!

ولم يلحق بالحديث الدائر أى خور أو وهن طيلة السهرة ، وكان ينصب أساساً على الأخبار السياسية . وحمى الحديث ، بصفة خاصة ، قرابة نهاية الحفلة ، عندما ذكرت المكافآت التى منحها الامبراطور .

قال « المفـكر العميق » :

— أنتم تعرفون الآن أنّ ن ... ن ... قد تلقى صندوق سعوط وعليه الصورة فى السنة الماضية ؟ فلماذا لايحصل س ... س ... على نفس الامتياز ؟

(*) «فى سبيل ملك بروسيا» ، عبارة تعنى بالفرنسية : «فى سبيل شىء لاقيمة له» .

قال الذبلوماسي :

— معذرة ، إن صندوق سعوط عليه صورة الامبراطور ، هو مكافأة ، لكنه ليس امتيازاً . بل هو على الأصح هدية .

— هناك سوابق يصح أن أذكر شوارزنبرج .

فأجاب آخر :

— مستحيل .

— أتراهن ..؟ إن شريط النوط مسألة مختلفة...

ولما نهض الجميع ، استعداداً للذهاب ، التفتت هيلين التي كانت لم تتكلم إلا قليلاً جداً طيلة السهرة ، وطلبت إلى بوريس بلهجة الأمر ، والمداعبة ، لهجة تعني الشيء الكثير أن يأتي ليزورها يوم الثلاثاء .

وقالت ملتفتةً إلى آنا باڤلوڤنا :

— ذلك أمرٌ يهمني جداً .

فأيدت آنا باڤلوڤنا رغبة هيلين ، بنفس الابتسامة الحزينة الأسيانة التي كانت تصحب حديثها عن الامبراطورة ، ولية نعمتها العظمة .

كان يظهر أن هيلين رأت من الضروري ، فجأة ، أن يزورها بوريس ، نتيجة لشيء ما قاله في الحفلة عن الجيش البروسي . وكان يظهر أنها تعد بشرح ضرورة هذه المسألة عندما يزورها يوم الثلاثاء .

فلما جاء بوريس ، يومَ الثلاثاء ، إلى صالون هيلين الفخم ، لم يتلق تفسيراً واضحاً عن ضرورة مجيئه . كان هناك ضيوف آخرون ، ولم تحدثه الكونتيسة الا قليلاً ، وعندما قبَّل يدها وهو يودعها ، قالت له ، على غير انتظار ، هامسة ، وعلى وجهها تعبير غريب ، لا أثر للابتسام فيه :

— تعال للعشاء غداً ... في المساء . يجب أن تأتي .. تعال ..!

وتردد بوريس كثيراً على بيت الكونتيسة ، اثناء إقامته في بطرسبرج.

الفصل الثامن

كانت الحرب يحمى وطيسها ، وتدنو من الحدود الروسية . وكان المرء يسمع اللعنات تنصب على بونابرت « عدوّ الجنس البشرى » ، فى كل مكان . وكان رجال الميليشيا ، وجنود الجيش ، يُجندون فى القرى ، وتأتى من مراكز الحرب أنباء متناقضة ، غير صحيحة ، كالمعتاد ، ومن ثمّ فهى متباينة التفسيرات .

وكانت حياة الأمير بولكونسكى الشيخ ، والأمير أندرو ، والأميرة مارى ، قد طرأ عليها تغير كبير منذ ١٨٠٥ .

فى ١٨٠٦ عُين الأمير الشيخ قائداً عاماً من القادة الثمانية المعهود إليهم بالاشراف على التعبئة التى صدرت الأوامر بها فى روسيا كلها . وعلى الرغم من وهن الشيخوخة الذى اتضح عنده بصفة خاصة منذ الوقت الذى كان يظن فيه ان ابنه قد لقى مصرعه ، لم ير الأمير الشيخ من الصواب أن يرفض واجباً عهد إليه به الامبراطور بنفسه ، فأكسبته هذه الفرصة الجديدة المتاحة له للنشاط ، قوةً جديدة وجلداً على العمل . فكان يسافر دائماً عبر الأقاليم الثلاثة المعهود بها إليه ، وكان مدققاً شديد الحرص فى آداء واجباته ، صارماً إلى حد القسوة مع مرؤوسيه ، وكان ينظر بنفسه فى كل شىء ، حتى أدق التفاصيل . وكانت الأميرة مارى قد كفّت عن تلقى دروس فى الرياضيات من أبيها ، وعندما كان الأمير الشيخ فى البيت ، كانت تذهب إلى مكتبه ، مع المربية ، والأمير نيكولاس الصغير ـ كما كان يدعوه جده . كان الأمير الطفل نيكولاس قد أُفرد له جناح الأميرة الصغيرة المتوفية ، مع مربيته ، والمربية سلافيشنا . وكانت الأميرة مارى تقضى سحابة النهار فى غرفته ، تقوم من ابن اخيها الصغير مقام الأم ، على أفضل وجه يسمها ذلك . وكان يبدو أن مدموازيل بورين أيضاً مولعة بالولد ، تحبه حباً مشبوباً ،

وكانت الأميرة ماري ، تقتر على نفسها كثيراً ، لتتيح لصديقتها ملاعبة الملاك الصغير ، كما تدعو ابن اخيها ، وتدليله .

وكان بالقرب من هيكل الكنيسة في « ليسى جورى» كنيسة صغيرة أقيمت فوق مقبرة الأميرة الصغيرة ، وفي الكنيسة نُصُب تذكارى من الرخام أتى به من إيطاليا ، يمثل ملاكا مبسوط الجناحين على أهبة التحليق إلى أعلى . وكانت شفة الملاك العليا مرفوعة قليلاً ، كأنما يوشك أن يبتسم . وقد تصارح الأمير أندرو والأميرة ماري في ذات مرة ، بينما هما خارجان من الكنيسة ، أن وجه الملاك يذكرهما بالأميرة الصغيرة على نحو غريب . على أن الأغرب من ذلك هو أن الأمير أندرو كان يطالع في التعبير الذي أضفاه النحات على وجه الملاك ، ذلك اللوم الوديع الهين ، الذي طالعه على وجه امرأته المتوفاة : « آه .. لِمَ صنعتم ذلك بي ؟» ، لكنه لم يقل عن ذلك لأخته شيئاً .

كان الأمير الشيخ ، قد وهب الأمير أندرو ، بعد عودته بقليل ، ضيعة كبيرة ، هي بوجيشاروڤو ، على نحو خمسة وعشرين ميلا من «ليسىّ جورى» . وأفاد الأمير أندرو من بوجيشاروڤو ، وأخذ يقيم فيها العمائر ، ويقضى معظم وقته فيها ، ويرجع شيء من أسباب ذلك للذكريات المحزنة المصاحبة لضيعة «ليسىّ جورى» ، وشيء لأن الأمير أندرو لم يكن يشعر بنفسه ، في كل الأحوال ، قادراً على احتمال أطوار أبيه الغريبة ، وشيء آخر لأنه كان يحتاج الوحدة والانفراد .

كان الأمير أندرو ، بعد حملة أوسترلتز ، قد عقد أمره ، حاسماً ، على الا يواصل خدمته العسكرية ، فلما عادت الحرب من جديد ، وكان على الجميع أن يقوموا فيها بواجبهم ، اتخذ لنفسه منصباً تحت رئاسة أبيه في التعبئة ، حتى يتحامى الخدمة في الميدان . وكان يبدو أن الأمير الشيخ وابنه ، قد استبدلا دور أحدهما بدور الآخر ، منذ حملة ١٨٠٥ . كان

الشيخ ، وقد استُنهض نشاطه ، ينتظر أطيب النتائج من الحملة الجديدة ، في حين كان الأمير أندرو ، على العكس ، لا يرى إلا الجانب المظلم ، إذ لم يكن ليشترك في الحرب ، ويندم لذلك ، سراً .

وفي السادس والعشرين من فبراير ١٨٠٧ خرج الأمير الشيخ يقوم بإحدى جولاته . وبقي الأمير أندرو في « ليسيّ جوري » ، كالمألوف في غيبة أبيه . كان نيكولاس الصغير قد ألمّت به وعكة منذ أربعة أيام . وعاد الحوذيّ الذي كان قد مضى بالأمير الشيخ إلى البلدة ، ومعه أوراق، وخطابات ، للأمير أندرو .

ولما لم يجد الوصيف الأمير الشاب في مكتبه ، ذهب بالخطابات إلى جناح الأميرة الصغيرة ، لكنه لم يجده فيه . وقيل له أن الأمير قد ذهب إلى غرفة الطفل . وفيما كان الأمير أندرو جالساً، على كرسي طفل صغير ، عابساً ، مرتجف اليدين ، يصبّ قطرات من زجاجة من الدواء في كأس ممتلئة بالماء حتى منتصفها ، قالت له إحدى الوصيفات :

— من فضلك يا صاحب السعادة . أحضر بيتروشا بعض الأوراق .

قال الأمير محنقاً :

— ما هذا ..؟

وارتجفت يده ، على الرغم منه ، فسكب في الكأس أكثر مما ينبغي من قطرات الدواء . وألقى بالمزيج على الأرض ، وطلب شيئاً من الماء . فأتت به الوصيفة .

كان في الغرفة مهدٌ لطفل ، وصندوقان ، ومقعدان مريحان ، ومائدة ، ومائدة لطفل ، والكرسي الصغير الذي كان يجلس عليه الأمير أندرو . كانت الستائر مسدلة ، وعلى المائدة شمعة واحدة موقدة يحجب ضوءها كتابٌ مجلّد للموسيقى ، حتى لا يقع الضوء على المهد .

قالت الأميرة ماري لأخيها ، من حيث كانت تقف بجانب المهد :

ــ يا عزيزى ، يحسن أن تنتظر قليلا .. فيما بعد ...

فقال الأمير أندرو ، هامساً فى غيظ :

ــ أوه ، دعكِ من هذا . أنت دائماً تقولين لغواً ، وتسوّفين الأمور ـ وهذه هى النتيجة ..!

كان من الواضح أنه يريد إيذاء مشاعرها .

قالت الأميرة بلهجة التوسل والضراعة :

ــ ياعزيزى ، حقاً .. يحسن ألا نوقظه .. إنه ينام .

فنهض الأمير أندرو . وذهب على أطراف قدميه إلى المهد ، والـكأس فى يده .

وقال متردداً :

ــ لعله يحسن ألا نوقظه حقاً .

قالت الأميرة مارى ، ومن الواضح أنها قد خجلت ، واختلط عليها الأمر إذ أخِذ برأيها :

ــ كما تشاء .. حقاً .. هذا ما أرى .. على أن الأمر كما تشاء .

ووجهت انتباه أخيها إلى الوصيفة التى كانت تناديه همساً .

كانت تلك هى ثانى ليلة لم ينم فيها أيّهما ، ساهريْن على الولد الذى كانت تنفضه الحمى . وكانا يحاولان ، فى الأيام الأخيرة ، أن يجربا دواءً بعد الآخر ، بعد أن فقدا الثقة فى طبيب العائلة ، فأرسلا فى طلب طبيب آخر من المدينة ، كانا الآن فى انتظاره . وقد أرهقهما الأرق والقلق ، فكان كل منهما يلقى بعبء الحزن الذى يرهقه ، على الآخر ، ويلومه ، ويُناقره .

همست الوصيفة :

ــ جاء بيتروشا بأوراق من والدك .

فخرج الأمير أندرو .

وتمتم :

— فليأخذه الشيطان ..!

وبعد أن سمع التعليمات الشفوية التى أرسلها أبوه ، وأخذ الخطابات ، وخطاب أبيه ، عاد إلى غرفة الطفل . وسأل :

— حسناً ..؟

همست الأميرة مارى ، وهى تتنهد :

— على نفس الحال . انتظر والله ..! يقول كارل إيڤانيتش دائماً أن النوم أهم من كل شىء .

فأقبل الأمير أندرو على الطفل ، وجسّه . كان ساخناً يتقد .

— أنتِ ، وصاحبك كارل إيڤانيتش ..!

وأخذ الكأس والدواء ، وذهب إلى المهد مرة أخرى .

قالت الأميرة مارى :

— أندريه .. لا ..!

لكنه عبس فى وجهها بغضب ، وإن كان الألم يبدو فى عينيه ، وانحنى والكأس فى يده ، على الطفل . وقال :

— ولكنى أريد هذا ، أرجوك ، أعطه الدواء . !

فهزت الأميرة مارى كتفيها ، ولكنها أخذت الكأس فى خضوع ، ونادت الممرضة ، وأخذت تعطى الطفل الدواء . فراح الطفل يصرخ بصوت أبح . وأجفل الأمير أندرو ، وخرج من الغرفة يمسك رأسه بيديه ، وجلس على الأريكة فى الغرفة المجاورة .

كان ما زال ممسكاً بالخطابات كلها فى يده . ففتحها بشكل آلى ، وأخذ يقرأ . كان الأمير الشيخ قد كتب ما يلى ، بخطه الكبير المستطيل ، على ورق أزرق ، وهو يفيد بين الحين والآخر من صِيَغ الاختصار :

« تلقيت هذه اللحظة أخباراً سارة جداً ، إن لم تكن كاذبة ، عن طريق رسول خاص . يظهر أن بينجسين أحرز انتصاراً تاماً على بونابرت

فى إيلاو . وفى بطرسبرج ابتهاج عام ، والمكافآت التى أرسلت للجيش لا عدد لها . إننى أهنئه ، بالرغم من أنه ألمانى ..! ولا أستطيع أن أتبين ماذا يفعل القائد فى كورشيفو ـ ويدعى خاندريكوف ـ فحتى الآن لم تصل المؤن ولا الجنود الاضافية . اتجه إليه عدْواً فى الحال ، وقل له أننى سأقطع له عنقه إن لم يصل إلىّ كل شىء هنا فى مدى أسبوع . تلقيت خطاباً آخر عن موقعة بروسيش إيلاو ، من بيتينكا ـ فقد اشترك فيها ـ والخبر صحيح تماما . عندما لا يقحم مثيرو الشرّ أنفسهم ، يستطيع ألمانى ، حتى ، أن يغلب بونابرت . يقال أنه يهرب فى فوضى شاملة . إذهب عدْواً إلى كورشيفو دون تأخير ، ونفذ التعليمات ..! »

فتنهد الأمير أندرو ، وفتح ختم خطاب آخر. كان خطاباً منمنم الخط من صفحتين ، من بيليبين . فطواه دون أن يقرأه ، وأعاد قراءة خطاب أبيه الذى ينتهى بقوله : «اذهب عدواً إلى كورشيفو ، ونفذ التعليمات ! »

ودار فى ذهنه ، وهو يمضى إلى الباب ويطلّ إلى غرفة الطفل :

ــ لا ، عفواً . ! لن أذهب حتى يتحسن حال الطفل .

كانت الأميرة مارى ماتزال واقفة بجانب المهد ، تهزّ الطفل هزاً هيناً لطيفاً .

وفكر الأمير أندرو ، وهو يستعيد خطاب أبيه :

ــ آه نعم ، ماذا قال أيضاً مما يسوء ..؟ نعم ، أحرزنا نصراً على بونابرت عندما لم أكن فى الميدان . نعم ، نعم ، إنه دائماً يسخر منى .. طيب ..! فليفعل ..!

وأخذ يقرأ خطاب بيليبين ، وكان مكتوباً بالفرنسية ، قرأ نصفه دون أن يفهم شيئاً ، كان يقرأ لكى ينسى ، ولو لحظة واحدة ، ذلك الهم الذى أطال تفكيره فيه ، على ذلك النحو المؤلم ، حتى أبعد عن ذهنه كل شىء فيما عداه .

الفصل التاسع

كان بيليبين الآن فى قيادة الجيش ، فى مركز دبلوماسى ، وعلى أنه كان يكتب بالفرنسية ، ويقول دعابات فرنسية باصطلاحات فرنسية ، فقد كان يصف الحملة كلها بسخرية من النفس ، وحساب للنفس هى من الخصال الروسية الأصيلة . كتب بيليبين يقول أن التزامات الحيطة الدبلوماسية تعذبه ، وأنه سعيد لأن يجد فى الأمير أندرو شخصاً يكتب إليه ، ويعوّل عليه ، ويستطيع أن يصبّ إليه ماتراكم عنده من مرارة لمرأى كل مايدور فى الجيش ، كان الخطاب قديماً ، مكتوباً قبل موقعة برسيش إيلاو.

كتب بيليبين يقول :

- أنت تعرف أيها الأمير العزيز أننى لا أبرح القيادة العامة . ومنذ نجاحنا الباهر فى أوسترلتز أصبحت الحرب قطعاً تروقنى ، وهذا شىء أستحقه . فان ما رأيته فى هذه الشهور الثلاثة يستعصى على التصديق .

وأبدأ من البداية . عدوّ الجنس البشرى ، كما تعرف ، يهاجم البروسيين . والبروسيون هم حلفاؤنا الأوفياء ، فلم يخونونا إلا ثلاث مرات فى خلال ثلاث سنوات. فندفع عن قضيتهم . ولكن يحدث أن عدو الجنس البشرى لا يجعل بالاً لخطبنا الرائعة ، ويلقى بنفسه على البروسيين ، بطريقته الوحشية الوقحة ، دون أن يتيح لهم الوقت لأن يفرغوا مما بدأوا فيه من استعراض ، ويهزمهم مرتين بيده فيذروهم حطاماً منثوراً ، ويتخذ لنفسه من قصر بوتسدام مقراً .

ويكتب ملك بروسيا إلى بونابرت : إننى أرغب أشد الرغبة أن يكون استقبال جلالتكم فى قصرى ، وإقامتك فيه ، على النحو الذى يروقك ، وقد بادرت إلى اتخاذ كل الخطوات المؤدية لهذا الغرض ، بقدر ما أتاحت لى الظروف . فلعلنى قد وُفّقت..! ويفخر الجنرالات البروسيون بحسن

أدبهم مع الفرنسيين ، ويضعون أسلحتهم عند أول طلب .

ويأتى قائد الحامية فى جلوجاو ، ومعه عشرة آلاف رجل ، ويسأل ملك بروسيا مايفعل إذا طُلب إليه التسليم ... كل ذلك حق ، غاية الحق . نحن ، بإيجاز ، نأمل فى أن نسوى الأمور باتخاذ موقف المحاربين ، فينتهى الأمر على أن نندبّ فى الحرب ، وفى الحرب على حدودنا نحن ، فضلا عن ذلك ، مع ملك بروسيا ، وفى سبيل ملك بروسيا(*) ، ولدينا كل شىء على أحسن نظام ، إلا أنه يعوزنا شىء واحد صغير . . يعوزنا قائد عام . ولما كان الرأى أن نجاحنا فى أوسترلتز ربما كان أعظم وأكثر حتماً لو لم يكن القائد العام صغير السنّ جداً ، فقد استعرض كل رجالنا ممن تجاوزوا الثمانين فآوثر كامينسيكى على بروزوروفسكى . ويأتى الجنرال إلينا ، فى « كيبيتيكا » (*) على طريقة سوفوروف ، فيلقى استقبالا من صيحات الفرح والانتصار .

وفى الرابع من الشهر يصل الرسول الأول من بطرسبرج . فيؤخذ البريد إلى غرفه الفيلد مارشال ، لأنه يحب أن يفعل كل شىء بنفسه . وأدعى لكى أساعد فى فرز الخطابات ، واستلام الموجّه منها إلينا . وينظر إلينا الفيلد مارشال فى انتظار الخطابات الموجهة اليه . ونحن نبحث . ولكن لا نجد شيئاً . فينفد صبر الفيلد مارشال . ويشتغل بنفسه . فيجد خطابات من الامبراطور إلى الكونت ت ... والأمير ف ... وغيرهما . وعندئذ ينفجر بغضبة وحشية من غضباته . ويرعد ويبرق ضد كل شخص وكل شىء

(*) التورية التى وردت فى الفصل السابق ، وتعنى الحرب فى سبيل شىء لاقيمة له .

(*) الكيبيتكا هى فى الأصل بيت متنقل تستخدمه القبائل الرحل ، ويبنى من خشب مشبك يغطيه اللباد . وتستخدم الكلمة أيضاً كما هو الحال هنا ، لتدل على عربة خشبية مغطاة من طراز قديم .

ويمسك بالخطابات فيفتحها . ويقرأ خطابات الامبراطور الموجهة إلى الآخرين .. « آه ..! هذه هى الطريقة التى يعاملوننى بها إذن ..! لا ثقة فىّ ..! آه .. يؤمرون بأن يرقبونى ..! حسناً جداً إذن ..! اذهبوا أنتم !
ومن ثم يكتب الأمر اليومى الشهير الموجه إلى الچنرال بينيجسين :

« إننى جريح ، ولا أستطيع الركوب . ومن ثم لا أستطيع قيادة الجيش وأنت قد أتيت بفرقتك مندحرة إلى بولتسوك . وهى هنا عرضة للهجوم ، ومن غير وقود ولا علف ولذلك يجب عمل شىء ما . وكما أبلغت الكونت بوكسهوودين بنفسك الأمس ، عليك أن تفكر فى التقهقر إلى حدودنا ـ فافعل اليوم . »

ويكتب للامبراطور :

« كان من نتيجة ركوبى الخيل كثيراً أنه يؤلمنى أنْ أركب ، وذلك بعد كل رحلاتى السابقة يعوقنى تماماً عن أن أركب ، لقيادة هذا الجيش الكبير ، ولذلك نقلت القيادة إلى أكبر الجنرالات سناً : الكونت بوكسهوودين ، وأرسلت إليه بكل أركان حربى ، وكل ما يختص بها ، ونصحته إن أعوزه الخبز أن يتحرك إلى أبعد فى داخل بروسيا ، إذ أنه لم يبق إلا تموين يوم واحد من الخبز ، ولم يبق شىء منه على الاطلاق فى بعض الفرق ، كما يقرر قائدا الفرق أوسترمان ، وسيدموريتزكى ، وقد أُتى على كل ما كان يملك الفلاحون منه . وسأبقى فى المستشفى ، فى أوسترولينكا حتى استرد صحتى . ونظراً لذلك أقدم تقريرى بخضوع ، وأنبئكم أنه إذا بقى الجيش فى مواقعه الحالية أسبوعين آخرين ، فلن يبقى فيه رجل واحد صحيح البدن عندما يقبل الربيع .

فاسمحوا لرجل تقدم به السن أن يعود إلى مقره فى الريف . فهو على أى حال قد أصابه العار لعجزه عن أن يهض بالمهمة العظيمة المجيدة التى اختير لأدائها . وسأنتظر تعطفكم بالتصريح لى ، هنا فى المستشفى ،

حتى لا أضطر أن أقوم بدور « السكرتير » ، بدلاً من دور « القائد » فى الجيش . إن إبعادى من الجيش لن يؤدى إلى أدنى اضطراب فيه . فسوف يترك الجيش رجلٌ أعمى . وهناك الآلاف مثله فى روسيا . »

إن القائد العام مغضب من الامبراطور ، فيعاقبنا جميعاً . أليس ذلك منطقياً ..؟

هذا هو الفصل الأول . والفصول التى تتلو ذلك شائقة ومسلية على نحو مطّرد بالطبع . فبعد رحيل الفيلد مارشال يتضح أننا على مرأى من العدو ، وعلينا أن نقاتل . بوكسهوو ْدين هو القائد الأعلى ، بالأقدمية . لكن بينيجسين لا يقتنع بذلك كل الاقتناع ، وبخاصة لأنه ، وجناحه من الجيش ، هم الذين يقمون على مرأى من العدو ، فهو يريد أن ينتهز الفرصة السانحة ليحارب موقعة « على حسابه الخاص » . كما يقول الألمان . فيفعل ذلك وهذه هى موقعة بولتسوك التى تعتبر نصراً عظيما ، وإن لم تكن من ذلك فى شىء ، فى رأيى . ذلك أننا نحن المدنيين ، كما تعرف ، لنا أساليب سيىء جداً فى تقرير ما إذا كانت الموقعة قد كانت كسباً أم خسارة . إن أولئك الذين يتقهقرون بعد الموقعة خسروها ، هذا مانقول ، ووفقاً لذلك فنحن الذين خسرنا موقعة بولتسوك . نحن نتقهقر بعد الموقعة، بعبارة موجزة ، لكننا نرسل إلى بطرسبرج رسولاً ينبىء بالنصر ، ويأمل الجنرال بينيجسين أن يتلقى من بطرسبرج منصب القائد العام ، إثابة له على ما أحرز من نصر ، فلا يسلّم قيادة الجيش إلى الجنرال بوكسهوو ْدين . وفى خلال هذه الموقعة تبدأ سلسلة شائقة وطريفة جداً من المناورات . فلم يعد هدفنا ، كما ينبغى أن يكون ، أن نتحامى العدو أو أن نهاجمه ، بل أن نتحاشى الجنرال بوكسهوو ْدين ، الذى ينبغى بحق الأقدمية أن يكون قائدنا . فنسعى وراء هذا الهدف سعياً حثيثاً ، حتى أننا بعد أن نعبر نهراً لايمكن اقتحامه ، نحرق الجسور ، لنفصل بين أنفسنا وعدونا ــ وهو الآن

ليس بونابرت بل بوكسهووْدين . وكادت قوات العدو المتفوقة أن تهاجم الجنرال بوكسهووْدين وأن تأسره نتيجة لإحدى هذه المناورات التى مكنتنا من أن نفلت منه . بوكسهووْدين يطاردنا ، ونحن نهرول هاربين. وما يكاد يعبر نهراً ليصل إلينا ، حتى نعبره عائدين إلى الشط الآخر . وفى النهاية يمسك بنا عدوّنا ، بوكسهووْدين ، ويهجم . والجنرالان كلاهما غاضب ، والنتيجة أن يتحدى بوكسهووْدين بينيجسين ، فيقع هذا فريسة لنوبة من الصرَع . وفى هذه اللحظة الحرجة يعود الرسول الذى حمل أنباء انتصارنا فى بولتسوك إلى بطرسبرج ، ويأتى معه بتعييننا فى منصب القائد العام ، وينحدر عدونا الأول بوكسهووْدين ، فنحن نستطيع الآن أن نعود بأفكارنا إلى عدونا الثانى بونابرت . على أنه فى تلك اللحظة بالذات ، يتفق أن يظهر لنا عدو ثالث هو : الجنود الروس الأرثوذكس، مطالبين بعنف بالخبز ، واللحم ، والبسكوت ، والعلف .. وهلم جرا ..! والمخازن خاوية ، والطرق مقطوعة . ويُعمل الأرثوذكس نهباً وسلباً ، على نحوٍ لا يمكن أن تتصوره مما حدث فى حملتنا الأخيرة . وتشكل نصف الفرق عصابات تقلب الريف رأساً على عقب ، وتُعمل النار والسيف فى كل شىء . ويلحق بالسكان الخراب الشامل التام ، وتفيض المستشفيات بالمرضى ، وتطلّ المجاعة برأسها فى كل مكان . بل تهجم العصابات مرتين على مقر قيادتنا ، فيضطر القائد العام أن يرسل فى طلب كتائب من الجيش لتشتيتها . وفى إحدى هذه الهجمات حملت العصابات حقيبتى الفارغة ، والروب دى شامبر . ويقترح الامبراطور أن يعطى كل قواد الفرَق الحق فى إطلاق النار على العصابات . ولكننى أخشى أن يؤدى ذلك إلى قسر نصف الجيش على أن يطلق النار على نصفه الآخر . »

كان الأمير أندرو ، فى أول الأمر ، يقرأ بعينيه فحسب ، ولكنه بعد قليل ، وبالرغم منه ــ وعلى معرفته إلى أى مدى يمكن الاطمئنان إلى

بيليبين ـ فقد أخذ يعظم اهتمامه بما يقرأ . فلما بلغ إلى هذا الحدّ ، قبض على الخطاب بين يديه ، وغضّنه ، وألقاه بعيداً . لم يكن يضيق بما قرأ ، بل بأن الحياة التى لم يعد يشارك فيها الآن ، هناك بعيداً ، فى وسعها أن تكربه . أغمض عينيه ، ودعكَ جبهته كما لو كان يريد أن يخلّص نفسه من كل اهتمام بما قرأ ، وأصاخ السمع لما يجرى فى غرفة الطفل . وخيّل إليه فجأة أنه يسمع من خلال الباب صوتاً غريباً . فاستأثر به الجزع ، خشية أن يكون قد وقع للطفل شىء فى أثناء قراءته الخطاب . ومضى على أطراف أصابعه إلى باب غرفة الطفل ، وفتحه .

وعند ما دخل رأى أن المربية تخفى عنه شيئاً ، والفزع فى نظرتها ، وأن الأميرة مارى لم تكن بجانب المهد .

وسمع ما بدا له أنه همسها اليائس من خلفه :

— يا عزيزى .

واستأثر به الهلع الذى لا يُعقل ، كما يحدث غالباً بعد الأرق الطويل والقلق الطويل ـ فخطر له أن الطفل قد مات . وبدا له أن كل ما يسمع ويرى يؤيد هذا الهلع .

هجس فى ذهنه :

— انتهى كل شىء .

وتفصّد العرق البارد على جبهته . ومضى إلى المهد ، باضطراب ، وهو على يقين أنه سيجده فارغاً ، وأن المربية كانت تخفى الطفل الميّت . وأزاح الستارة إلى جنب ، ولم تقع عيناه المضطربتان القلقتان على الطفل. ثم رآه فى النهاية : كان الولد المورّد الوجه قد تقلب فى المهد حتى نام أخيراً على عرض الفراش ، رأسه منخفض عن المخدة ، وهو يتلمظ بشفتيه فى نومه ، ويتنفس بانتظام .

وكان سرور الأمير أندرو بأن يجد الطفل على هذه الحال ، بقدر

سروره فيما لو كان قد فقد الطفل حقاً ، ثم عاد فوجده . فانحنى عليه ، وعالج أن يتبين ، بشفتيه ، ما إذا كان الطفل ما زال محموماً ، كما علمته أخته . كان جبين الطفل الناعم مندّى . ولمس الأمير أندرو رأس الطفل بيديه ، كان شعره مبلولا ، فقد عرق الطفل بغزارة . لم يكن ميتاً ، وكان من الواضح أن الأزمة قد مرّت ، وأنه فى دور النقاهة . وتاق الأمير أندرو أن يختطف هذا المخلوق الصغير الذى لا حول له ، فيعتصره فى حضنه ، ويضمه إلى قلبه ، لكنه لم يجسر . فوقف إلى جانبه ، يحدّق إلى رأسه ، وذراعيه ، وساقيه الصغيرتين اللتين تظهران من تحت الغطاء . وسمع حفيفاً خلفه ، وظهر ظل تحت ستارة المهد . فلم ينظر حواليه ، لكنه ظل يحدّق إلى وجه الطفل ، ويسمع أنفاسه المنتظمة . كان هذا الظل هو الأميرة مارى ، وقد أقبلت إلى المهد بخطى مسترقة غير مسموعة ، ورفعت الستارة ثم أسدلتها خلفها . عرفها الامير أندرو دون أن ينظر إليها ، ومد إليها يده ، فضغطتها .

قال الأمير أندرو :

— عَرِق .

— أتيتُ لأقول لك ذلك .

أتى الطفل بحركة هيّنة فى نومه ، وابتسم ، ودعك جبهته بالمخدة .

نظر الأمير أندرو إلى أخته . كانت عيناها الوضيئتان ، فى ظل الستارة المعتم ، تتألق ألقاً أضوأ من المعهود فيهما ، من دموع الفرح . وانحنت على أخيها وقبّلته ، وقد اشتبكت بها ستارة المهد اشتباكاً هيناً . فأتى كل منهما بحركة تحذير للآخر ، ووقفا ساكنين فى الضوء الخافت تحت الستارة ، كأنما لا رغبة لهما فى أن يخرجا عن هذه العزلة معاً ، حيث كانوا ثلاثتهم ، محتجزَين بعيدين عن العالم بأسره . وكان الأمير أندرو أول من ابتعد ، وقد تشعث شعره باحتكاكه بموسلين الستارة .

وقال متنهداً :

— نعم ، هذا هو الشيء الوحيد الذى بقى لى الآن .

الفصل العاشر

ذهب پيير ، بعد قبوله فى «الأخوة الماسونية» إلى إقليم كييف ، حيث كان يملك العدد الأكبر من أقنان الأرض ، وقد اصطحب معه توجيهات مفصلة كتبها ، لهدايته إلى ما ينبغى أن يفعل فى ضيعته .

فلما وصل إلى كييف أرسل يدعو كل نظار أراضيه إلى مكتبه الرئيسى ، وشرح لهم نواياه ورغباته . قال لهم أنه ينبغى اتخاذ الاجراءات ، مباشرة ، لتحرير أقنانه — وأنهم ، حتى ذلك الحين ، لا يجوز إرهاقهم بالعمل ، ولا يجوز إرسال الأمهات المرضعات إلى العمل ، ويبذل العون للأقنان ، ويقتصر العقاب على التحذير والنصح والتأنيب ، ولا يمتد إلى العقاب الجسمانى ، وتؤسس المستشفيات ، والملاجىء ، والمدارس فى ضياعه كلها . كان بعض النظار ، ومنهم رؤساء عمال من أشباه الأميين ، يصغون فى جزع ، وقد دار فى ظنهم أن الكونت الشاب غير راضٍ عن إدارتهم للعمل ، واختلاسهم للمال ، والبعض الآخر ، بعد أن مرّت نوبة الفزع الأولى ، شاقتهم لثغة پيير ، والكلمات الجديدة التى لم يسمعوها من قبل ، وكان الآخرون يستمتعون ، ببساطة ، بطريقة السيد فى الكلام ، فى حين كان أذكاهم ، ومنهم رئيس النظّار ، قد أدركوا من كلامه كيف يستطيعون أن يعاملوا السيد ، بأمثل الطرق ، لتحقيق أغراضهم الخاصة .

عبّر رئيس النظار عن عطفه العظيم وتأييده لنوايا پيير ، ولكنه قال أنه فضلا عن هذه التغيرات ، ينبغى فحص الحالة العامة للأمور ، وهى بعيدة عن أن تكون مدعاة للرضا .

وعلى الرغم من ثروة الكونت بيزوخوف الطائلة — فقد كان يقال أن

دخله يبلغ خمسمائة ألف روبل فى العام ـ أحسّ پيير بنفسه أشد فقراً بكثير عما كان عليه عند ما كان أبوه يعطيه مصروفاً قدره عشرة آلاف روبل . وبدت له الميزانية التالية ، فى غير وضوح :

نحو ٨٠٠ ألف مدفوعات لبنك الأراضى على كل ضياعه ، ونحو ٣٠٠ ألف لصيانة الضيعة القريبة من موسكو ، والبيت فى البلد ، ومصروف الأميرات الثلاث ، ونحو ١٥ ألف معاشات ، ومثلها للملاجىء ، و١٥٠ ألف نفقة ترسل للكونتيسة ، ونحو ٧٠ ألف للفوائد على الديون . وكلف بناء الكنيسة التى بدىء فيها من قبل نحو ١٠ آلاف فى كل من العامين الماضيين ، ولم يكن يعرف فيم أنفق الباقى وهو نحو ١٠٠ ألف . وكان مضطراً ، كل عام تقريباً ، إلى الاقتراض . وفضلا عن ذلك فقد كان رئيس النظار يكتب له ، كل عام ، عن حرائق تحدث فى ضياعه ، وعن سوء المحاصيل ، أو عن ضرورة إعادة بناء المصانع والورش . ومن ثم كانت المهمة الأولى التى يجب عليه أن يواجهها مهمة ليست له عليها إلا أدنى مقدرة ، وليس عنده إلا أدنى ميل لها : إدارة الأعمال .

كان يبحث أمور الضيعة كل يوم مع رئيس نظاره . لكنه كان يحس أن ذلك لايدفع الأمور إلى الأمام إطلاقاً . كان يحس أن هذه المشاورات منفصلة ومعزولة عن حقيقة الأمور ، وأنها لا ترتبط بها ، ولا تؤدى إلى تحريكها . كان رئيس النظار ، من ناحية ، يضع الحالة تحت عينيه فى أسوأ الأوضاع ، مشيراً إلى ضرورة الوفاء بالديون ، والقيام بنشاط جديد فيما يتعلق بعمل الأقنان ، وهو أمر لم يكن پيير يوافق عليه . وكان پيير ، من ناحية أخرى ، يطالب باتخاذ الإجراءات لتحرير الأقنان ، فكان الناظر يقابل ذلك بإظهار ضرورة الوفاء بديون بنك الأراضى أولاً ، ومن ثم يستحيل تحرير الأقنان فى وقت وجيز .

لم يقل الناظر أن ذلك مستحيل كل الاستحالة ، بل اقترح بيع الغابات

فى منطقة كوستروما ، والأراضى الواقعة عند منحدر النهر ، والضيعة الواقعة فى القرم ، حتى يصبح ذلك ممكناً . وكل هذه العمليات ، فى رأيه ، مرتبطة بإجراءات معقدة ، كالوفاء بالالتزامات ، وتقديم التماسات ، والحصول على تصريحات .. وهلم جرا ، حتى اختلط الأمر على پيير كل الاختلاط ، ولم يسعه إلا أن يقول :

— نعم ، نعم ، افعل ذلك .

لم يكن لپيير شىء من المثابرة العملية التى تمكنه من الاشراف على العمل بنفسه . ولذلك كان يكرهه ، ويحاول فحسب أن يدّعى أمام الناظر أنه يشرف على العمل . وكان الناظر من جانبه يحاول أن يدّعى أمام الكونت أنه يرى هذه المشاورات قيّمة جداً عند المالك ، ولكنها متعبة بالنسبة له ، هو الناظر .

ولقى پيير فى كييف بعض معارفه ، وبادر بعض الغرباء إلى أن يعقدوا معه أواصر المعرفة ، ورحبوا بالقادم الثرى ، فى سرور ، فهو أكبر ملاك الاقليم . وكان الإغراء بأكبر نواحى الضعف عند پيير — وهى التى اعترف بها عند قبوله فى المحفل — من القوة ، حتى لم يكن فى طاقته أن يقاومه . وكما كان يحدث فى بطرسبرج مرت به أيام ، وأسابيع ، وشهور بأكملها من حياته ، متدافعة مسرعة ، وكان مشغولا بالسهرات وحفلات العشاء والغداء والرقص ، حتى لم يتح له أدنى وقت للتفكير . وبدلا من الحياة الجديدة التى كان يأمل أن يحياها ، ظل يحيا حياته القديمة ، فى ظروف جديدة .

وتحقق پيير أنه لم يفِ بأحد المبادىء الثلاثة للماسونية ، وهو المبدأ الذى يدعو كل ماسونى أن يكون قدوة فى الحياة الخلقية ، وكان يعوزه فى الفضائل السبع فضيلتان : فضيلة الخلق القويم ، وفضيلة حب الموت . وكان يعزى نفسه بأنه يفى بمبدأ آخر هو إصلاح الجنس البشرى ، وأنّ

عنده فضيلتان أخريتان : حب القريب ، والـكرم بوجه خاص .

وفى ربيع ١٨٠٧ قرر أن يعود إلى بطرسبرج . وكان ينوى أن يلم فى طريقه بكل ضياعه ، ويرى بنفسه إلى أى حد نفذت أوامره ، وفى أى حال كان الأقنان الذين عهد الله بهم إليه ، أولئك الذين كان ينوى أن يسدى إليهم النفع .

كان رئيس النظار قد تنازل بعض الشىء ، على أنه كان يرى محاولة الكونت الشاب توشك أن تكون جنوناً ـ ولا نفع فيها له ، ولا للكونت ، ولا للأقنان . فبقى على تصويره لتحرير الأقنان شيئاً غير عملى ، لـكنه قام بإعداد الاجراءات لانشاء بنايات كبيرة للمدارس والمستشفيات والملاجىء ، فى كل الضياع ، قبل وصول سيده . وأعدت الاجراءات فى كل مكان ، لا لاحتفالات الترحيب ، فقد كان يعرف أن پيير لن يروقه ذلك ، بل للاحتفالات الدينية للتعبير عن الشكران ، بتقديم الأيقونات، والخبز والملح للدلالة على الترحيب ، فقد كان ذلك ليمس مشاعر سيده ، ويخدعه ، وفقاً لما فهمه من خلق سيده .

كان للربيع فى الجنوب ، والسفر السريع المريح فى عربة من طراز عربات ڤيينا ، والوحدة فى الطريق ، أثرها البهيج على پيير . وكانت الضياع التى لم يزرها من قبل ، كل ضيعة منها أجمل من سابقتها ، وكان يبدو الرخاء وحسن الحال على الأقنان فى كل مكان ، وكانوا شاكرين ، بشكل يمس القلب ، لما أضفاه پيير عليهم من معونة . ولقى فى كل مكان ترحيباً كان يحرجه وإن كان يوقظ فى أعماق قلبه شعوراً بالبهجة . ففى أحد الأماكن قدم له الفلاحون الخبز والملح ، وأيقونة للقديس بطرس والقديس بولس، وطلبوا منه الإذن ، دلالة على امتنانهم لمـا أسداه إليهم من منافع ، أن يشيدوا جناحاً جديداً للترنم فى الـكنيسة ، على نفقتهم الخاصة ، تمجيداً

للقديسين بطرس وبولس ، وهما شفيعاه (*) . وفى مكان آخر استقبلته النساء ، وعلى أذرعتهن الأطفال، ليشكرنه على تخليصهن من العمل الشاق . وفى ضيعة ثالثة جاء القسيس يحمل صليباً على كتفيه ، ليلقاه ، يحيط به الأطفال الذين كان يعلمهم القراءة والكتابة والدين ، بفضل كرم الكونت. ورأى پيير بعينيه ، فى كل ضياعه ، بنايات من الطوب أقيمت أو هى بسبيلها إلى البناء ، كلها على نفس التصميم ، للمستشفيات والمدارس والملاجىء ، وكان افتتاحها قريبا . وفى كل مكان رأى حسابات النظار ، حيث قلل العمل الذى يلتزم الأقنان بأدائه دون مقابل لصاحب الأرض ، وسمع شكر مندوبى الأقنان ، فى ستراتهم الزرقاء المنسدلة ، شكراً يمس المشاعر .

لم يكن پيير يعرف أن المكان الذى قدم له فيه الخبز والملح ، وكانوا يريدون أن يقيموا فيه جناحاً جديداً للترنم فى الكنيسة تمجيداً للقديسين بطرس وبولس ، كان ساحة قروية يقام فيها السوق فى عيد القديس بطرس(١) ، وأن أغنى الفلاحين ــ وهم الذين تكونت منهم لجنة المندوبين ــ كانوا قد بدأوا بالفعل فى بناء الجناح الجديد منذ زمن طويل ، وأن تسعة أعشار الفلاحين فى تلك القرية كانوا فى حال مروعة من الفاقة والفقر المدقع . ولم يكن يعرف أنه لما كانت الأمهات المرضعات لا يرسلن للعمل فى أراضيه ، فقد كن مضطرات للقيام بعمل أشق فى أراضيهن . ولم يكن يعرف أن القسيس الذى استقبله بالصليب كان يفدح الفلاحين بما يطلبه منهم ، وأن آباء التلاميذ كانوا يبكون لأنه يأخذ منهم أطفالهم(٢) ، وأنهم كانوا يحصلون

(*) تحتفل الكنيسة الروسية بعيد القديسين بطرس وبولس فى نفس اليوم ومن ثم فانهما كلاهما يعتبران شفيعا پيير (بطرس) .

(١) مما يساعد على اجتناب الفلاحين للسوق أن يقام فى الكنيسة جناح جديد يثير اهتمام الفلاحين .

(٢) كان العمل الذى يقوم به الأطفال فى أراضى الفلاحين الخاصة الصغيرة ، عملا له قيمة عندهم .

على الافراج عن أطفالهم مقابل دفع مبالغ فادحة . لم يكن يعرف أن الأبنية المتخذة من الطوب ، على تصميم واحد ، إنما كان يبنيها الأقنان الذين زاد بذلك التزامهم الفعلىّ بالعمل لصاحب الأرض دون مقابل ، وإن كان قد قل على الورق . لم يكن يعرف أنه فى المكان الذى رأى فيه من حسابات الناظر أن ديون الأقنان قد قلت إلى الثلث ، كان التزامهم بالعمل دون مقابل قد زاد إلى النصف . ومن ثم سر پيير لزيارته لضياعه ، واستعاد مزاج الرجل الخيّر المحسن للانسانية ، وهو المزاج الذى كان يشيع فى نفسه عند ما غادر بطرسبرج ، وكتب خطابات ملؤها الحماس « لأخيه ومعلمه » ، كما كان يدعو الأستاذ الأكبر .

وفكر پيير :

— ما أسهل أن يأتى المرء الخير ، وما أقل مايحتاج ذلك من جهد . وما أقل ما نبذله فى ذلك من اهتمام ..!

كان مسروراً لما تلقاه من شكر وامتنان ، وإن كان الخجل يخامره له . كان هذا الامتنان يذكره بما عساه يفعل ـ وهو الكثير ـ لأولئك الناس الطيبين البسطاء .

كان رئيس النظار رجلا غبياً جداً لكنه أريب ماكر ، وكان يرى الكونت على حقيقته تماماً ، على ذكائه وسذاجته ، فلما شهد أثر هذه الاحتفالات المدبرة على نفسه ، ألح عليه بالبراهين والأدلة على استحالة تحرير الأقنان ، وعدم الجدوى فى ذلك ، فوق كل شىء ، فقد كانوا سعداء كل السعادة فى حالهم ذاك .

وكان پيير فى دخيلة نفسه يتفق مع الناظر فى أنه يصعب أن يتصور المرء قوماً أسعد حالا ، وأن الله وحده يعرف ما عساه قد يحدث لهم لو أنهم كانوا أحراراً ، لكنه كان ، على غير رضا ، يصر على ما يراه صواباً . فوعد الناظر بأن يفعل كل ما فى طاقته لتنفيذ رغبات الكونت ، فقد

رأى بوضوح أن الكونت لن يستطيع أبداً أن يتبين ما إذا كانت كل الاجراءات قد اتخذت لبيع الأرض والغابات، وتخليصها من بنك الأراضى، بل أنه لن يسأل عن ذلك الموضوع أبداً ، على الأرجح ، ولن يعرف أبداً ما إذا كانت الأبنية الجديدة خاوية على عروشها ، وما إذا كان الأقنان يقدمون بالفعل كل ما يقدمه أقنان الملاك الآخرين من عمل ومال ـ أى يقدمون كل ما فى الوسع ابتزازه منهم .

الفصل الحادى عشر

عاد بيير من رحلته فى جنوب روسيا وهو فى أسعد حال ، فنفذ نية كانت لديه من زمن طويل ، فى زيارة صديقه بولكونسكى الذى لم يره منذ سنتين .

كانت بوجيشاروڤو تقع فى بسطة من الأرض خاملة لا تثير اهتماماً ، بين الحقول وغابات الشربين والبتولا ، وقد اجتث جانب منها . وكان البيت يقع خلف بحيرة قد احتفرت حديثاً ، وملئت بالماء حتى حافتها ، ولم ينم العشب على شطآنها ، فى طرف قرية تمتد على طول الطريق العام ، فى وسط غابة حديثة العهد بها قليل من أشجار الشربين .

كانت الدار تتكون من الجرن ، والمبانى الخارجية ، والاصطبلات ، والحمام ، وكوخ ، وبيت كبير مبنى بالطوب له واجهة شبه دائرية ما يزال يجرى بناؤها. وحول البيت حديقة حديثة العهد بالزرع. وكانت الأسوار والبوابات جديدة ومتينة ، وفى المخزن مضختان للحريق ، وعربة للماء ، مطلية كلها باللون الأخضر ، وكانت الممرات مستقيمة ، والجسور قوية لها حواجز على الجانبين . كان كل شىء يحمل سمة النظام وحسن الادارة. والتقى بيير ببعض أقنان المنزل ، فلما سألهم عن مكان إقامة الأمير، أشاروا

إلى بيت صغير حديث البناء قريب من البحيرة . وجاء أنطون ، وهو رجل كان قد عنى بشئون الأمير أندرو فى صباه ، فساعد پيير على النزول من عربته ، وقال أن الأمير فى البيت ، وأدخله إلى ردهة داخلية صغيرة نظيفة .

واسترعى پيير مايتسم به البيت الصغير ، على نظافته ، من صغر وافتقار إلى الفخامة ، بعد ما كان قد شهده من فخامة الجو المحيط بصديقه فى بطرسبرج .

دخل غرفة الاستقبال الصغيرة ، بجدرانها الخشبية التى ما تزال من غير طلاء ، تفوح برائحة الصنوبر ، وكان يهم بالدخول لولا أن أسرع أنطون ، على أطراف أصابعه ، وطرق على أحد الأبواب .

فجاء صوت حادٌ غير لطيف :

— هيه .. ماذا جرى ..؟

أجاب أنطون :

— هناك زائر .

— قل له أن ينتظر .

وسمع صوت كرسى يدفع إلى الخلف .

ذهب پيير بخطى سريعة إلى الباب ، وفجأة وجد نفسه وجهاً لوجه أمام الأمير أندرو الذى خرج عابساً ، تبدو عليه الشيخوخة . عانقه پيير ، وخلع نظارته ، وقبّـل صديقه على خده ، ودقق النظر إليه .

قال الامير أندرو :

— لم أكن أنتظرك . إننى مسرور جداً .

لم يقل پيير شيئاً ، بل ثبت النظر إلى صديقه بدهشة . صدمه ما وجد فيه من تغيّر . كان فى كلماته ود وعطف ، وعلى شفتيه ووجهه ابتسامة ، ولـكن عينيه معتمتان ، لا حياة فيهما ، وعلى الرغم من رغبته الواضحة

فى أن يكسبهما تألق الفرح والسرور ، أعجزه ذلك . كان الأمير أندرو قد نحل ، واشتد شحوبه ، وازداد مظهره رجولة . على أن ما أدهش بيير ، وخلّف عنده شعوراً بالغربة ـ حتى ألفه ـ هو جموده وخموله ، وما فى جبهته من تقطيب ينم عن انصباب الذهن طويلا على فكرة واحدة ما .

ومر وقت طويل قبل أن يستقر حديثهما على شىء ما بعينه ، كما هو الحال عادة عند ما يلتقى الناس بعد غياب طويل . كانا يسألان ، ويجيبان إجابات موجزة ، عن مسائل يعرفان أنه ينبغى إطالة الحديث عنها . واستقر الحديث فى النهاية عند بعض الموضوعات التى كان قد مسها من قبل مساً خفيفاً : حياتهما الماضية ، ومشروعات المستقبل ، ورحلات بيير ومشاغله ، والحرب .. وهكذا . كان الهم ، والقنوط الذى لاحظه بيير فى نظرة صديقه ، يفصح عن نفسه الآن بشكل أوضح . فى ابتسامته وهو يصغى إلى بيير ، وبخاصة عند ما كان يتكلم ، بحيوية وانفعال بهيج ، عن الماضى ، أو المستقبل . كان يبدو كأنما يود الأمير أندرو لو شارك بيير فى وجدانه بما يقول ، لكنه لا يستطيع . فبدأ الأخير يخامره الاحساس بأن من الذوق النابى أن يتكلم عن أحلامه التى يعلوها الحماس ، وآماله فى السعادة والخير ، فى محضر الأمير أندرو . وأخجله أن يعبر عن آرائه الماسونية الجديدة ، وقد ابتعثها رحلته الأخيرة ، ووطّدت منها . فكبح نفسه ، وقد ساورته الخشية من أن يبدو بمظهر الساذج . وخامرته الرغبة التى لا صدّ لها ، مع ذلك ، فى أن يُظهر لصديقه ، بأسرع ما يسعه ذلك ، أنه الآن شخص مغاير جداً ، وأفضل ، من بيير الذى كانه فى بطرسبرج .

ـ لا أستطيع أن أخبرك بمدى التجارب التى خضتها منذ ذلك الحين . إننى لا أكاد أعرف نفسى .

قال الأمير أندرو :

— نعم ، تغيّرنا كثيراً ، كثيراً جداً ، منذ ذلك الحين .

— وماذا عنك ؟ ما مشروعاتك ؟

فردّد الأمير أندرو بسخرية :

— مشروعات ! مشروعاتى ..؟

كما لو كانت هذه الكلمة قد أدهشته .

— كما ترى إنني أبنى . أنوى الاستقرار هنا نهائياً فى العام القادم ...

فنظر پيير إلى وجه الأمير أندرو ، صامتاً ، متفحصاً . وقد شاخ هذا الوجه كثيراً .

وبدأ يقول :

— لا .. أقصد أن أقول ..

فقاطعه الأمير أندرو :

— ولكن لِمَ تتكلم عنى ..؟ تكلم إلىّ ، نعم ، قل لى أخبار رحلاتك ، وكل ما فعلته فى أراضيك .

فأخذ پيير يصف ما قام به فى أراضيه ، وهو يعالج ما وسعه ذلك أن يخفى نصيبه فيما أُجرى من تحسينات . وكان الأمير أندرو يستحث حكاية پيير عما فعل ، عدة مرات ، كما لو كانت تلك كلها حكاية قديمة . ولم يكن يصغى دون اهتمام فحسب ، بل بدا كأنه خجِلٌ مما يخبره به پيير .

وخامر پيير شعور بالقلق والنبوّ عن الراحة ، بل بالكآبة والهبوط فى صحبة صديقه ، وصمت فى النهاية .

قال الأمير أندرو ، وقد كان واضحاً أنه يشعر بالحرج والكآبة أيضاً مع زائره :

— اسمع يا صاحبى العزيز . إننى إنما أقمت الليلة فقط هنا ، فقد جئت

لألقى نظرة فحسب . وسأعود اليوم إلى أختى ، وسأقدمك لها . ولكنك تعرفها بالطبع من قبل .

كان يعالج أن يُؤنس زائراً ليس بينهما الآن شىء مشترك .

— سنذهب بعد الغداء . وهل تحب أن تلقى نظرة على هذا المكان هنا ؟

وخرجا ، وأخذا يجولان حتى حان وقت الغداء ، يتكلمان عن أخبار السياسة والأصدقاء ، كما يفعل الناس الذين لايعرفون بعضهم البعض معرفة حميمة . وتكلم الأمير أندرو بشىء من الحيوية عن الدار الجديدة التى يبنيها ، ومنشآتها ، ولكنه حتى فى ذلك ، وبينما كان على الصقالة ، وقد مضى يتكلم عن إعداداته فى المستقبل بشئون الدار ، قاطع نفسه قائلا :

— على أن ذلك ليس مهماً على الإطلاق . هيا بنا نتغدى ، ثم نذهب معاً بعد ذلك .

وعلى الغداء اتجه الحديث إلى زواج بيير .

قال الأمير أندرو :

— دهشت كثيراً عند ما سمعت .

تضرج بيير ، شأنه دائماً كلما جاء ذكر هذا الموضوع ، وأسرع يقول :

— سأخبرك فى يوم من الأيام كيف حدث كل شىء . ولكنه قد انتهى ، كما تعرف ، انتهى تماماً ، وإلى الأبد .

قال الأمير أندرو :

— إلى الأبد ..؟ لاشىء إلى الأبد .

— لكنك تعرف كيف انتهت المسألة ، ألا تعرف ..؟ سمعت عن المبارزة .. ؟

— فقد اضطررت أن تخوض ذلك أيضاً ..!

قال بيير :

— شىء واحد أشكر الله عليه . أننى لم أقتل ذلك الرجل .

فسأل الأمير أندرو :

— ولمَ ..؟ إن قتل كلب شرير شيء حسن جداً فى الحقيقة .

— لا ، إن قتل رجل شيء ردىء — شرّ .

فألحّ عليه الأمير أندرو :

— وما وجه الشرّ فى ذلك ؟ ليس للانسان أن يعرف ما الشر وما الخير . والناس دائماً أخطأوا ، ودائماً سيخطئون ، وهم لا يخطئون فى شيء أكثر من خطئهم فيما يرونه شراً أو خيراً .

شعر پيير ، وسرّه الشعور بأن الأميرأندرو قد استنهض للمرة الأولى منذ وصوله ، وأنه قد أخذ يتكلم ، وأنه يريد أن يعبّر عما انتهى به إلى حالته الراهنة ، فقال پيير :

— إن ما يُلحق الأذى بالغير شر .

فسأل الأمير أندرو :

— ومن أخبرك بمَ هو شر عند رجل آخر ..!

فهتف پيير :

— شر .. شر ..! كلنا نعرف ما هو الشر عندنا .

قال الأمير أندرو ، وقد ازدادت حيويته ، واطردت ، وكان واضحاً أنه يريد أن يفصح لپيير عن نظرته الجديدة ، وكان يتكلم بالفرنسية :

— نعم ، نحن نعرف ذلك . ولكن الأذى الذى أحسه فى نفسى شيء لا أستطيع أن أُلحقه بالآخرين . إننى أعرف شرّين حقيقين جداً فقط ، فى الحياة : الندم ، والمرض . والخير الوحيد هو انعدام هذين الشرّين . إن فلسفتى كلها الآن أن أعيش لنفسى ، متجنباً هذين الشرّين .

فبدأ پيير يقول :

— وحُبّ القريب ، والتضحية بالنفس ..! لا ، لا أستطيع أن أوافقك ..! ليس بكافٍ أن تعيش فقط حتى لا تفعل الشر ، ولا تضطر للندم . كنت

أعيش على هذا النحو، كنت أعيش لنفسي. فدمرت حياتي. والآن فقط، وأنا أعيش، أو أحاول على الأقل (فقد حمله تواضعه على تصحيح عبارته) أن أعيش للآخرين، الآن فقط فهمت كل سعادة الحياة. لا. لن أوافقك، وأنت لا تؤمن في الحقيقة بما تقول.

فنظر الأمير أندرو إلى پيير. صامتاً، بابتسامة ساخرة، وقال:

— عند ما ترى أختي، الأميرة ماري، ستشعر معها بالاوتياح.

وأضاف بعد وقفة وجيزة:

— لعلك محق بالنسبة إلى نفسك. ولكن كل امرىء يعيش بطريقته. أنت عشت لنفسك، وتقول أنك أوشكت أن تدمر حياتك، وأنك لم تجد السعادة إلا عند ما بدأت تعيش للآخرين. أما أنا فقد خبرت العكس بالضبط. عشت للمجد ـ وما المجد في نهاية الأمر..؟ الحب تسديه للآخرين، ورغبة في أن تصنع من أجلهم شيئاً، رغبة في الحصول على تحبيذهم ـ عشت إذن للآخرين، ولم أوشك أن أدمر حياتي، بل دمرتها فعلا. وأنا الآن أهدأ حالاً، منذ بدأت أعيش لنفسي فقط.

فسأله پيير، وقد زاد انفعاله واهتياجه:

— ولكن ماذا تعني بأن تعيش لنفسك فقط..؟ ماذا عن ابنك، وأختك، وأبيك..؟

فقال له الأمير أندرو:

— إنهم بالضبط كنفسي ـ إنهم ليسوا « بالآخرين ». الآخرون، « القريب »، كما تقول، وتقول الأميرة ماري، هم المصدر الرئيسي للخطل والشر. «القريب» ـ فلاحوك في كيف الذين تريد أن تسدي لهم الخير.

ونظر إلى پيير نظرة هازئة متحدية. وواضح أنه يريد أن يجذبه ويوقع به في الحديث.

فأجاب بيير ، وقد تعاظم اهتياجه وانفعاله :

— أنت تمزح . أى خطل أو شر ، يمكن أن يكون فى رغبتى أن أصنع الخير ، أو فى أن آتى قليلاً من الخير ـ على أننى لم أصنع إلا القليل جداً من الخير ، ولم أحسن صنعه ..؟ أى شر يمكن أن يكون فى أن هؤلاء الأشقياء ، أقناننا ، ناس مثلنا ، كانوا يعيشون ويموتون ، ولا فكرة عندهم عن الله وعن الحقيقة . فيما عدا الاحتفالات والصلوات التى لا معنى لها ، وهم الآن يتلقون تعليماً عن إيمان مريح للقلب يعدهم بالخلود فى الحياة المستقبلة ، والجزاء ، والثواب ، والعزاء ..؟ أى شر ، أو خطل فى أن الناس كانوا يموتون من المرض دون عون ، بينما من أيسر الأمور أن يُسدى العون المادى ، فوفرت لهم طبيباً ، ومستشفى ، وملجأ للشيوخ ..؟ أليس من الخير الملموس الذى لا نزاع فيه أن الفلاحين ، أو الأمهات المرضعات اللائى لم تكن تجدن راحة فى النهار أو الليل ، قد وفرت لهم الراحة والفراغ ..؟

كان بيير يُعجل الكلام ، ويلثغ :

— وقد فعلت ذلك ، على أننى لم أحسن صنعه ، وقمت به فى حدود صغيرة ، لكننى قمت بشىء ما فى سبيل فعله ، ولن تستطيع أن تقنعنى أنه لم يكن عملا خيّراً ، ولن تستطيع ، فوق ذلك ، أن تحملنى على الظن بأنك لا ترى ذلك ، أنت أيضاً .

واستطرد :

— إن الشىء الأساسىّ أننى أعرف ، وأعرف عن يقين ، أن المتعة بعمل هذا الخير ، هى السعادة الوحيدة المؤكدة فى الحياة .

قال الأمير أندرو :

نعم ، هذا شىء مغاير تماماً ، لو أنك عبّرت عنه بهذه الطريقة . إننى أبنى بيتاً ، وأزرع حديقة ، وأنت تبنى مستشفيات . وكلاهما يصح

أن يكون شيئاً تنفق فيه الوقت . أما ما هو خير وما هو صواب ، فيجب أن يحكم على ذلك من يعرف كل شيء ، ولسنا نحن .

ثم أضاف :

— وأنت تريد النقاش . تعال إذن .

ونهضا من المائدة ، وجلسا فى شرفة المدخل التى كانت تقوم مقام القراندة .

قال الأمير أندرو :

— فلنتناقش إذن .

ومضى ، وهو يثنى إصبعاً :

— أنت تتكلم عن المدارس والتعلم ، وهلم جرا . أى أنك تريد أن ترفعه (وأشار إلى فلاح مرّ بهما وهو يرفع قلنسوته) من حالته الحيوانية ، وتوقظ فيه حاجاته الروحية ، بينما يبدو لى أن السعادة الحيوانية هى السعادة الوحيدة الممكنة ، وهذا بالذات ما تريد أن تحرمه إياه . إننى أحسده ، لكنك تريد أن تجعله مثلى ، دون أن توفّر له إمكانياتى . ثم أنك تقول «خفف عنه كدّه» ، ولكنى أرى الوضع كما يلى : إن الكدح الجسمانى ضرورى له ، وشرط من شروط وجوده ، ضرورة النشاط الذهنى لى أو لك . أنت لا تملك إلا أن تفكر . وأنا أذهب للسرير بعد الساعة الثانية صباحاً ، تأتى الافكار ولا أستطيع النوم بل أتقلب حتى الفجر ، لأننى أفكر ولا أملك إلا أن أفكر ، كما أنه بالضبط لا يملك إلا أن يحرث الأرض ويحصد الزرع ، فإن لم يفعل ذهب إلى دكان الخمر ، أو سقط مريضاً . وكما أننى بالضبط لن أحتمل عمله الجسمانى المروّع ، بل أموت منه فى مدى أسبوع ، فإنه لن يحتمل خمولى الجسمانى ، بل يسمن ويموت . والشيء الثالث — فيم تكلمت أيضاً ..؟

وثنى الأمير أندرو إصبعاً ثالثاً :

— آه ، نعم . المستشفيات ، والأطباء . هب أن نوبة أصابته ، وهو يموت ، فأنت تأتي لتفصده ، وترقمه فيجر نفسه ، كسيحاً ، عبئاً على الجميع ، عشرة سنوات أخرى . الامر يختلف لو أنك كنت لا تريد أن تخسر أيادي عاملة فهذا كيف أنظر إليه — لكنك تريد أن تشفيه ، من حبك له . أما هو ، فلا يريد ذلك . وفضلاً عن ذلك فيا لها من فكرة أن الدواء يشفي أحداً من علته أبداً ..!

وقال وهو يعبس غاضباً ، ويشيح عن پيير :

— يقتل الناس ، نعم ..!

عبّر الأمير اندرو عن آرائه بوضوح وبيان كان من الجلي معه أنه تأمل هذا الموضوع أكثر من مرة ، وكان يتكلم بسرعة ، وطواعية ، شأن رجل لم يتكلم منذ زمن طويل . وقد ازدادت نظرته حيوية ونشاطاً كلما ازدادت نتائج جدله يأساً وقنوطاً .

قال پيير :

— أوه ، هذا مروع ، مروع ..! لست أفهم كيف يعيش المر بهذه الأفكار . مرت بي لحظات كهذه منذ زمن غير بعيد ، في موسكو ، وعند السفر ، ولكني في هذه اللحظات أنهار ، حتى أنني لا أعيش إطلاقاً — وكل شيء يبدو لي كريهاً مقيتاً ... وأمقت نفسي فوق كل شيء . فلا آكل ، ولا أغتسل ... فكيف بك تفعل ..؟

قال الأمير أندرو :

— لماذا لا تغتسل ..؟ ليس هذا من النظافة في شيء . على العكس ، يجب على المرء أن يجعل حياته سارّة بقدر الإمكان . إنني أعيش ، وليس هذا ذنبي ، فيجب أن أعيش حياتي بأفضل ما يسعني ، دون أن أوذي الآخرين .

ولكن أي حافز لك للحياة ، ولك هذه الأفكار ..؟ إن المرء

ليجلس فى هذه الحالة دون حركة . دون أن يفعل شيئاً ..

— إن الحياة ، فيم يتفق لنا بالفعل ، لا تترك للمرء راحة . يسرنى ألا أفعل شيئاً ، ولـكن النبلاء المحليين هنا ، من ناحية ، قد شرفونى باختيارى مارشالاً لهم (*) ، فعملت كل ما وسعنى أن أفعل ، حتى أخلص من ذلك . لم يستطيعوا أن يفهموا أننى لا أملك المؤهلات اللازمة لذلك : هذا الطبع الضحل التافه الطيب القلب الـكثير اللغط ، الضرورى لهذا المنصب . ثم هناك هذا البيت الذى ينبغى بناؤه حتى يكون للمرء ركنه الذى يأوى إليه فى هدوء . ثم هناك الآن هذه التعبئة .

— ولِمَ لا تخدم فى الجيش ..؟

قال الأمير أندرو متجهماً كابى الوجه :

— بعد أوسترلتز ..؟ لا ، شكراً جزيلا ..! قطعت على نفسى وعداً ألا أخدم مرة ثانية فى الجيش الروسى العامل . ولن أفعل — حتى لو كان بوناپرت هنا فى سمولنسك ، يهدد «ليسى جورى» — حتى فى هذه الحالة ، لن أخدم فى الجيش الروسى ..!

واستطرد ، بعد أن تمالك رباطة جأشه :

— هذا ما كنت أقول إذن ، هناك الآن هذه التعبئة . إن أبى هو القائد العام للمقاطعة الثالثة ، والطريقة الوحيدة لتجنب الخدمة فى الجيش العامل هى الخدمة تحت رئاسته .

— فأنت إذن تقوم بالخدمة فعلا ..؟

— نعم .

وكف برهة وجيزة .

(*) مارشال النبلاء Maréchal de la Noblesse هو الممثل الرسمى للنبلاء والسادة ملاك الأرض فى أحد الأقاليم .

- ولمَ تقوم بالخدمة ..؟

- للسبب التالى فقط .. إن أبى من أكثر الناس جدارة بالتقدير فى عصره . لكنه يشيخ ، وعلى أنه ليس قاسياً بالضبط ، فإن له طبعاً شديد الحماس والنشاط إلى حدٍ مغالى فيه . وقد اعتاد على السلطة غير المحدودة ، حتى أصبح رهيباً ، وله الآن سلطة القائد العام للتعبئة هذه ، وقد منحها إياه الامبراطور . لو أننى كنت قد تأخرت ساعتين ذات يوم ، منذ أسبوعين ، لكان قد أمر بشنق كاتبٍ صراف فى يوخنوفا .

وابتسم الأمير أندرو عند ما قال ذلك ، ثم استطرد :

- ومن ثم أقوم بالخدمة ، لأننى الشخص الوحيد الذى يؤثر أدنى تأثير على أبى ، ويقع فى مقدرتى ، بين الحين والآخر ، أن أنقذه من أعمال كانت لتعذبه فيما بعد .

- حسناً ، هاكَ الآن ..!

فاستمر الأمير أندرو .

- نعم ، لكن ليس الأمر على ما تتصوّر إننى لم أعن ، ولا أعنى أدنى عناية ، بهذا الكاتب الوغد الذى سرق بضع أحذية من المجندين ، بل كان ليسرنى جداً أن أراه مشنوقاً ، ولكننى كنت آسفاً من أجل أبى - أى من أجل نفسى ، مرة أخرى .

ازداد الانفعال بالأمير أندرو . تألقت عيناه كالمحموم ، وهو يعالج أن يدلل لبيير على أنه لم يكن فى أعماله رغبة لفعل الخير للقريب .

واستطرد قائلاً :

- وأنت مثلاً ، تريد أن تحرّر أقنانك . هذا شىء حسن جداً ، لكنه ليس حسناً بالنسبة لك - فلست أفترض أنك أمرت بجلد أحد ، أو إرساله إلى سيبريا ، وذلك على الأخص بالنسبة لأقنانك . ولو أنهم ضُربوا ، أو جلدوا . أو أرسلوا إلى سيبريا ، فما أظن حالهم تسوء فى

شيء . ففي سيبريا يعيشون نفس الحياة البهيمية ، وتلتئم آثار السياط على ظهورهم ، ويعودون سعداء كما كانوا . لكنه شيء حسن بالنسبة للملاك الذين يُقضى عليهم معنوياً ، ويهيلون الندم على أنفسهم ، ويخنقون هذا الندم ، ويصبحون جفاة غلاظاً نتيجة لمقدرتهم على إيقاع العقاب ، بحق وعن غير حق . هؤلاء الناس أشفق عليهم ، ومن أجلهم أود لو تحرر الأقنان . لعلك لم تر ، لكنني أنا رأيت . كيف ينشأ رجال أخيار في تقاليد هذه السلطة غير المحدودة ، وعند ما يزداد خلقهم ضيقاً ، بمرور الوقت ، يصبحون قساة جفاة ، وهم يحسون ذلك ، لكنهم لا يستطيعون أن يردّوا أنفسهم ، فيزداد شقاؤهم باطراد .

كان الأمير أندرو يتكلم بحماس وإخلاص بلغ معه أنْ لم يملك بيير نفسه من افتراض أن هذه الأفكار إنما أوحت بها إليه حالة أبيه .

فلم يجب .

— ومن ثم فذلك ما آسف له ـ الكرامة الإنسانية ، راحة البال ، والنقاء . لست آسف على ظهور الأقنان ورؤوسهم ، فمهما ضربتها وحلقتها(*) فإنها ستبقى الظهور والرؤوس بعينها .

قال بيير :

— لا ، لا ..! وألف مرة لا ..! لن أوافقك أبداً ..!

(*) كان من حق مالك الأرض أن يرسل أي قن من أقنانه إلى سيبريا ، وكان أحد جانبي رأس القن يحلق عند ما يرسل إلى سيبريا ، حتى يسهل القبض عليه فيما لو حاول الهرب .

الفصل الثانى عشر

وفى المساء استقل أندرو وپيير العربة المكشوفة ، وذهبا إلى « ليسى جورى » . كان الأمير أندرو يرمق پيير ، ويقطع الصمت ، بين الحين والآخر ، بتعليقات تنم عن اعتدال مزاجه .

وأشار إلى الحقول ، وتكلم عن الإصلاحات التى كان يجريها فى شئون زراعته .

أما پيير فقد لزم الصمت ، وبقى جهماً مقطباً ، لا يجيب إلا بكلمات وحيدة ، وقد استغرقته ، فيما يبدو ، أفكاره .

كان يفكر فى أن الأمير أندرو يعانى الشقاء ، وأنه قد ضل الطريق . ولم يكن يرى النور الحق ، وأنّ عليه هو ، پيير ، أن يساعده ، وينيره ، ويسمو به . على أنه ما يكاد يفكر فيما ينبغى له أن يقول ، حتى يستشعر أن الأمير أندرو سيهدم كل تعليمه بكلمة واحدة ، بحجة واحدة ، فيتراجع عن البدء بما يقول ، وهو يخشى أن يضع ما يراه ثميناً ومقدساً موضع السخرية المحتملة .

بدأ پيير يقول فجأة ، وقد خفض رأسه ، وبدا بمظهر الثور الذى يهمّ بالهجوم :

— لا ، لِمَ تفكر على هذا النحو ..؟ لِمَ تفكر على هذا النحو ..؟ أخلق بك ألا تفعل ..

فسأل الأمير أندرو مندهشاً :

— أفكر ..؟ فيم ..؟

— فى الحياة ، فى المصير لا يمكن أن يكون الأمر على هذا النحو . كنت أفكّر أنا نفسى على هذا النحو ، أتعرف ماذا أنقذنى ؟ الماسونيّة ! لا ، لا تبتسم . ليست الماسونية شيعة للطقوس الدينية ، كما كنت أظنها ،

الماسونية هى أفضل تعبير عن أطيب جوانب الانسانية الخالدة .

وأخذ يشرح الماسونية ، كما فهمها ، للأمير أندرو . قال أن الماسونية هى تعاليم المسيحية ، تعاليم المساواة ، والأخوة والحب .

قال پيير :

— أخوّتنا المقدسة وحدها تعرف معنى الحياة الحقّ ، وكل ماعداها حلم . فلتعرف يا صاحبي العزيز أن كل شيء ، فما عدا هذا الاتحاد ، ملىء بالخداع والزيف . إننى لأوافقك على أنه لا يبقى للرجل الذكى الخيّر ، بعد ذلك ، إلا أن يعيش حياته ، مثلك ، جاهداً ألا يُلحق الأذى بالآخرين . اعتنق عقائدنا الجوهرية ، التحق بأخوّتنا ، هب نفسك لنا ، دع نفسك تتبـع هدايتنا ، وستشعر بنفسك ، على الفور ، كما شعرت بنفسى ، جزءاً من سلسلة خفية هائلة ، تتوارى بدايتها فى السماء .

أصغى الأمير أندرو صامتاً إلى كلمات پيير ، وهو ينظر أمامه مباشرة . وعند ما كان صوت عجلات العربة يعوقه أن يسمع كلمات پيير ، كان يسأله ، أكثر من مرة ، أن يردد ما قال . ورأى پيير أن كلماته لم تكن عبثاً ، من الوهج الغريب الذى كان يتألق فى عينى الأمير أندرو ، وأن الأمير أندرو لم يكن ليقاطعه ، ولا ليهزأ بما كان يقول .

وبلغا نهراً فاضت مياهه على شاطئيه ، فكان عليهما أن يعبراه بالقارب . وفيما كانت العربة والخيل توضع على الرمث ، تقدما هما أيضاً . واستقلاه .

أسند الأمير أندرو ذراعيه إلى حاجز الرمث ، وحدّق صامتاً إلى المياه المتدافعة المتألقة فى ضوء الغروب .

سأل پيير :

— فماذا ترى إذن ..؟ لِمَ تلتزم الصمت ..؟

— ماذا أرى ..؟ إننى أصغى إليك . هذا حسن جداً .. أنت تقول: التحق بجماعتنا ، وسنريك غاية الحياة ، ومصير الإنسان ، والقوانين التى تحكم

العالم .. ولكن مَن نحن ؟ بشر ... فكيف تعرفون كل شيء ..؟ لِم لا أرى ، وجدى ، ما ترونه ..؟ أنتم ترون عهداً من الخير والحق على الأرض . أما أنا فلا أراه .

فقاطعه پيير ، وسأله :

— هل تؤمن بالحياة الآخرة ..؟

فردَّد الأمير أندرو :

— الحياة الآخرة ..؟

على أن پيير لم يتح له الوقت أن يجيب ، وحمل ترديد عبارته على محمل الإنكار ، وبخاصة أنه يعرف عقائد الأمير أندرو الإلحادية السابقة :

— أنت تقول أنك لا تستطيع أن ترى عهداً من الخير والحق على الأرض ولا أنا بمستطيع ذلك ، ولا سبيل إلى رؤيته إذا نظر المرء إلى حياتنا هذه كما لو كانت غاية كل شيء . على الأرض ، هنا على هذه الأرض (وأشار پيير إلى الحقول) لا حقَّ هناك ، كل شيء زيف وشر ، أما فى الكون ، فى الكون كله ، فهناك مملكة الحق ، ونحن ، أبناء الأرض الآن ، إنما نحن ، فى الأبد أبناء الكون كله . ألا أشعر ، أنا ، فى قرارة روحى ، أنى جزء من هذا الكل المتسق الشاسع ..؟ ألا أشعر ، أنا ، أنى أكوِّن حلقة واحدة ، خطوة واحدة ، بين الكائنات الدنيا ، والكائنات العليا ، فى هذا الحشد المتسق الشاسع من الكائنات التى تتجلى فيها الألوهية ـ أو القوة العظمى ، إن آثرت هذا التعبير ..؟ فإن كنت أرى ، وأرى بوضوح ، هذا السلّم الذى يفضى من النبات إلى الإنسان . فلِمَ أفترض أنه ينقطع عندى ، ولا يُبعد ماضياً إلى أعلى فأعلى ..؟ إنى أشعر أنى لا يمكن لى أن أختفى ، إذ لا يختفى شيء فى هذا العالم ، وإنما أشعر أنى سأظل موجوداً دائماً ، وأنى كنت موجوداً دائماً . أشعر أن هناك أرواحاً فوقى ، وفيما يتجاوزنى ، وأن هنا ، فى هذا العالم ، يوجد الحق .

قال الأمير أندرو :

— نعم ، هذه نظرية هيردر . لـكن ذلك ليس الشىء هو الذى بوسعه أن يقنعنى يا صديقى العزيز، الحياة والموت هى الشىء المُـقنع . إن الشىء المقنع أن يرى المرء كائناً عزيزاً إليه ، مرتبطاً بحياته ، والمرء يقف أمامه مسئولاً ملوماً عليه التبعة ، وفى مرجوّه أن يقوّم الأمور ويقوّضها (وارتجف صوت الأمير أندرو، وأشاح ببصره) ، ثم يستأثر الألم بهذا الكائن فجأة ، ويعانى ، ويكفّ عن الوجود ... لمَ ..؟ لا يمكن ألا تكون ثمّ إجابة . وأعتقد أن هناك فعلاً إجابة ... هذا هو الشىء المـقنع، هذا ما أقنعنى .

قال بيير :

— نعم . نعم بالطبع . أليس ذلك ما أقول ..؟

— لا . إن كل ما أقول هو أن الحجج والبراهين ليست هى الشىء الذى يقنعنى بضرورة الحياة المستقبلة ، ولـكن هذا : عند ما تذهب مع شخص آخر ، يدك فى يده ، ثم يختفى هذا الشخص دفعة واحدة «هناك» فى « لا شىء » .. ثم تترك أنت تواجه تلك الهاوية ، وتنظر إليها . وقد نظرتُ إليها ...

— حسناً . فهذا هو الوضع إذن .! أنت تعرف أن ثمّ « هناك » ، وأن ثم « كائناً » ..؟ «هناك» .. هو الحياة المستقبلة .. وهذا «الكائن» هو الله ..!

فلم يجب الأمير أندرو كانت العربة والخيل قد نقلت ، منذ زمن طويل، إلى الضفة الأخرى وأعيد ربطها بعضها بالبعض . وغابت الشمس، إلى منتصفها ، تحت حافة الأفق ، وكان بَرَد المساء كالنجوم يومض على سطح برك المياه بجانب القارب . أما بيير وأندرو ، فقد كانا ما يزالان واقفين على الرَمَث ، يتكلمان، لدهشة الحوذية والخدم ، ونوتية القارب .

قال بيير :

— فإن كان الله موجوداً والحياة الآخرة ، فإن الحق موجود ، والخير . وأسمى سعادة الإنسان ، أن يسعى لبلوغهما . يجب أن نحيا ، يجب أن نحب ، ويجب أن نؤمن ، إننا لا نعيش اليوم فحسب على هذه الكسرة من الأرض ، بل أننا قد عشنا ، وسنعيش أبداً ، في الكل .

وأشار إلى السماء .

وقف الأمير أندرو مستنداً إلى حاجز الرمث ، يصغى إلى پيير ، وحدق ، ثابت العينين، إلى وهج الشمس الأحمر يومض على المياه الزرقاء . وكانت السكينة شاملة كاملة . صمت پيير . وكان الرمث قد وقف منذ وقت طويل ، وكانت أمواج التيار تصطفق به هادئة خافتة ، من تحته . وأحس الأمير أندرو كما لو كان صوت الأمواج يردد كلمات پيير ، هامساً :

— إنه حق ، ضع إيمانك فيه .

فتنهد ، ونظر إلى وجه پيير نظرة رقيقة، وضيئة ، كنظرات الأطفال، وقد تضرج وجه پيير ، وبدت عليه نشوة من الجذل والفرح ، وإن كان خجلا بإزاء صديقه الذي يفوقه ويمتاز عليه .

قال الأمير أندرو :

— نعم ، لو كان ذلك حقاً ، فقط ..!

ثم أضاف :

— إلا أن الوقت قد أزف .

وخطا نازلاً من على الرمث ، ونظر إلى السماء بعد أن أشار إليها پيير ، وللمرة الأولى بعد أوسترلتز ، رأى السماء السامقة الباقية أبداً ، كما رآها وهو ممدد في ساحة القتال ، واستيقظ في نفسه شيء كان قد أغفى طويلا ، شيء كان أفضل ما فيه ، وانبعث زاخراً بالبهجة والفرح والشباب . لكنه اختفى بمجرد أن عاد إلى ظروف حياته المألوفة ، لكنه كان يعرف أن هذا الاحساس الذي لا يدرى كيف ينميه ، كان موجوداً في قرارة

نفسه . كان التقاء الأمير أندرو ببيير بداية عهد جديد فى حياته . وعلى أنه استمر يحيا حياته القديمة بعينها ، فيما يبدو من الخارج ، فقد بدأ حياة جديدة ، فى دخيلة نفسه .

الفصل الثالث عشر

كان الغسق قد بدأ يهبط عند ما وصلت العربة بالأمير أندرو وپيير إلى مدخل البيت فى « ليسى ّ جورى » . وفيما كان يقتربان ، وجّه الأمير أندرو انتباه پيير ، باسماً ، إلى لغط وضجيج يدور فى الردهة الخلفية . كانت قد اندفعت امرأة أحنى العمر عودها ، وعلى ظهرها غرارة ، وشابٌ قصير القامة طويل الشعر يرتدى رداءً أسود ، راجعين إلى الباب عند ما رأيا العربة آتية . وجرت خلفهما امرأتان ، ونظر الأربعة إلى العربة ، وجروا فى جزع صاعدين درجات سلّم الشرفة الخلفية .

قال الأمير أندرو :

— أولئك « أولياء الله » من أصحاب مارى . وقد أدخل فى روعهم عند ما رأونا أن أبى قد وصل . فهذا هو الشىء الوحيد الذى تعصى فيه أوامره . فهو يأمر بأن يُطرد هؤلاء الحجاج ، لكنها ترحب بهم .

سأل پيير :

— وما « أولياء الله » ..؟

فلم يتح للأمير أندرو الوقت لأن يجيب خرج الخدم لاستقبالهم ، فسأل عن مكان الأمير الشيخ ، وما إذا كان ينتظر وصوله قريباً .

كان الأمير الشيخ قد ذهب إلى المدينة ، وكان يُنتظر وصوله فى أية لحظة ..

سارَ الأمير أندرو أمام پيير إلى جناحه الخاص ، وكان هذا الجناح دائماً يبقى عليه فى أحسن نظام ، وعلى أتم أهبة لاستقباله ، فى بيت والده ،

ومضى إلى غرفة الطفل .

وعند ما عاد قال لبيير .

— فلنذهب نر أختى . لم أعثر عليها بعد فهى الآن مختفية ، مع أصحابها من « أولياء الله » . وهى خجِلة ، فستضطرب جداً ، ولكنك سترى « أولياء الله » أصحابها هؤلاء . إنه شىء طريف جداً فى الحقيقة .

سأل بيير :

— ما « أولياء الله » ؟

— تعال ، وسترى بنفسك .

اضطربت الأميرة مارى حقاً ، وارتبكت ، وبدت على وجهها بقع حمراء ، عند ما دخلا الغرفة . كان فى غرفتها الوثيرة التى تتقد فيها المصابيح أمام قائم الأيقونات ، فتى له أنف طويل وشعر مسترسل ، يرتدى جُبّة راهب سوداء ، وكان جالساً بجانبها على الأريكة ، خلف الساموفار . وجلست بالقرب منها ، فى مقعد مريح ، امرأة عجوز ناحلة ضامرة ، على وجهها الذى يشبه وجوه الأطفال تعبير عن الوداعة وطيبة القلب .

قالت الأميرة ، وفى صوتها عتب خفيف ، وهى تقف أمام صاحبيها الحاجّيْن ، كما تقف الدجاجة دون فراخها :

— أندرو ، لماذا لم تقل لى ..؟

وقالت بالفرنسية لبيير ، وهو يقبّل يدها :

— تشرفت برؤيتك . سعيدة جداً برؤيتك ...

كانت قد عرفته طفلاً ، وكانت صداقته لأندرو الآن ، وسوء حظه مع زوجته ، ووجهه الدمث البسيط فوق كل شىء ، تجعلها تميل إليه بالودّ . فنظرت إليه بعينيها الجميلتين الوضيئتين . وبدا كأنها تقول : « إننى أميل إليك بالودّ جداً ، ولكن ، أرجوك ألا تسخر من أصحابى » . وجلسوا بعد أن تبادلوا التحيات الأولى .

قال الأمير أندرو وهو يرمق الحاج الشاب باسماً :

ــ آه ، إيڤانوشكا هنا أيضاً ..!

قالت الأميرة مارى ضارعة :

ــ أندرو ..!

قال الأمير أندرو بالفرنسية لپيير :

ــ يجب أن تعرف أنه امرأة ..!

فرددت الأميرة مارى بالفرنسية :

ــ أندرو . بحقّ الله ..!

كان جلياً أن اللهجة الساخرة التى يتخذها الأمير أندرو بإزاء الحجاج، والمحاولات العاجزة التى تقوم بها الأميرة مارى لتقيهم منه ، هى الشكل الذى اتخذته علاقتهما المألوفة ، فى هذا الصدد ، واستقرت عليه ، منذ أمد طويل .

قال الأمير أندرو بالفرنسية :

ــ ولكن يا صديقتى العزيزة ، ينبغى لك على العكس أن تكونى ممتنة لأنى أفسر لپيير علاقتك الحميمة بهذا الفتى .

قال پيير وهو يحدق من فوق نظارته ، بتطلع وجدّ ــ كانت الأميرة مارى شاكرة له ، على الأخص ، هذا الموقف ــ إلى وجه إيڤانوشكا التى نظرت إليهم جميعاً ، عندما رأت نفسها موضع الحديث ، بعينين أريبتين .

كان ارتباك الأميرة مارى بصدد « أصحابها » شيئاً لا ضرورة له بالمرّة . فلم يكونوا يستشعرون أدنى حرج . خفضت المرأة العجوز عينيها، وإن كانت ترمق القادمين الجديدين بنظرات مسترقة جانبية ، وقلبت فنجانها ، ووضعت بجواره قطعة من السكر كانت تقضمها ، وجلست هادئة فى مقعدها المريح ، على أنها كانت تأمل أن يقدم لها فنجان آخر من الشاى . وكانت إيڤانوشكا تحسو الشاى من طبق الفنجان ، وتنظر بعينين ماكرتين نسويّتين ، من تحت حاجبيها ، إلى الشابين .

سأل الأمير أندرو المرأة العجوز :

— أين ذهبتِ ؟ إلى كيف ..؟

فأجابت تهذر بثرثرة طويلة :

— نعم ، يا سيدى الفاضل . عند ما جاءت أيام عيد الميلاد بالضبط ، قدّر لى أن أكون جديرة بأن آخذ بنصيب من القربان المقدّس السماوى ، فى هيكل القديس . وأنا الآن آتية من كوليازين ، ياسيدى ، حيث كشف الله عن بركة عظيمة تدعو للعجب .

— وهل كانت إيڤانوشكا معك ..؟

قالت إيڤانوشكا ، وهى تعالج أن تتكلم بصوت أجش :

— إننى أذهب وحدى ، يا ولىّ النعمة . وإنما التقيت بيلاجيا فى يوخنوفو ..

فقاطعت بيلاجيا زميلتها ، كان جلياً أنها تريد أن تحكى عما شاهدت .

— فى كوليازين ، يا سيدى ، كشف الله عن بركة عجيبة .

سأل الأمير أندرو :

— وما ذاك ..؟ مخلفات قديس ..؟

قالت الأميرة مارى :

— أندرو ، دعْكَ من هذا حقاً . بيلاجيا ، لا تقولى له .

— لا .. لمَ لا يا عزيزتى ..؟ لمَ لا أقول ..؟ إننى أحبه . هو طيب وعطوف ، ممن اختارهم الله ، هو محسن ، أعطانى مرة عشرة روبلات ، إننى أتذكر . عند ما كنت فى كيف ، قال لى سيريل العبيط ، وهو من أحباب الله ، ويمشى حافياً فى الصيف والشتاء ، قال لى : « لماذا لا تذهبين للمكان القويم . ؟ اذهبي إلى كوليازين ، حيث كشف الله عن أيقونة لأم الله المقدسة تأتى بالأعاجيب » . وعند ما سمعت هذه الكلمات ودّعت الأولياء الصالحين وذهبت .

كانوا جميعاً صامتين ، إلا المرأة الحاجّة التي مضت تقول ، بلهجة منتظمة النبرات ، وهى تأخذ أنفاسها :

— وعلى ذلك أذهب يا سيدى ، ويقول لى الناس : « كشف الله عن بركة عظيمة . نضح الزيت المقدس من وجنتىْ أمنا المباركة ، أم الله العذراء المقدسة » ...

قالت الأميرة مارى متضرجة الوجه :

— طيب ، طيب ، تستطيعين أن تخبرينا بذلك فيما بعد .

قال پيير :

— دعينى أسألها .

وسألها :

— هل رأيتموها بأنفسكم ..؟

— نعم . نعم يا سيدى . وجدنى الله جديرة بنعمته . نورٌ على الوجه كأنه نور السماء ، ومن خدّى الأم المباركة يسقط الزيت ويسقط ...

قال پيير بسذاجة ، بعد أن أصغى إلى الحاجّة بانتباه :

— ولكن يا إلهى ، لابد أن هذه خدعة ..!

فهتفت پيلاجيا ، مروّعة ، ملتفتة إلى الأميرة مارى فى طلب التأييد :

— أوه يا سيدى ، ماذا تقول ..؟

فردّد :

— إنهم يخدعون الشعب .

فهتفت الحاجّة ، وهى ترسم علامة الصليب :

— يا ربنا يسوع المسيح ..! أوه ، لا تقل هذا الكلام ياسيدى. ! كان هناك چنرال لم يؤمن ، وقال : «إن الرهبان يغشّون» وما أن قالها حتى أصابه العمى . وحلم أن الأم العذراء المقدسة جاءت إليه من جبّانات كيف وقالت له : « آمن بى ، وسوف أعيدك سليما » فكان يتوسل :

« خذونى إليها ، خذونى إليها » هذا هو الحق الصراح الذى أقول ، رأيته بعينى رأسى . فأتى به إليهـا ، وهو أعمى كل العمى ، وركع وهو يقول : « أعيدني سليماً ، وسأعطيك ما أعطانيه القيصر » رأيت ذلك بنفسى ياسيدى . النجمة مثبتة على الأيقونة . وماذا تظن ؟ عاد إليه بصره ..!

والتفتت إلى پيير وقالت له محذرة :

— حرام أن تقول هذا الـكلام . سيجازيك الله .

سأل پيير :

— كيف دخلت النجمة إلى الأيقونة ؟

وقال الأمير أندرو باسماً :

— وهل رُقّيت الأم القدسة إلى رتبة جنرال ..؟

شحبت پيلاجيا فجأة شحوباً شديداً ، واعتصرت يديها .

وقالت ، بينما كان شحوبها يحول إلى تضرج قانٍ :

— أوه يا سيدى ، يا سيدى ، حرام ..! وأنت عنـدك ولد ..! يا سيدى ، ماذا قلت ..؟ سامحك الله .!

ورسمت علامة الصليب :

— اغفر له يا إلهى ..!

والتفتت إلى الأميرة :

— يا عزيزتى ، ما معنى هذا ..؟

ونهضت ، وهى توشك أن تبـكى ، وأخذت تسوّى غِرارتها . كان واضحاً أنها تشعر بالخوف والخجل من أنها قبلت الإحسان فى بيت يمكن أن تقال فيه مثل هذه الأشياء ، وكانت فى نفس الوقت آسفة إذ تضطر للاستغناء عن إحسان هذا البيت .

قالت الأميرة مارى :

— ما حاجتـك أن تفعل هذا ..؟ لماذا جئت إلىّ ..؟

قال پيير :

ــ هيا يا پيلاجيا ، إنما كنت أمزح .

ثم قال بالفرنسية :

ــ بشرفي أيتها الأميرة ، لم أكن أقصد إيذاء شعورها .

واستطرد باسماً بخجل ، محاولاً أن يمحو أثر جريرته :

ــ لم أكن أقصد شيئاً . كنت أمزح فقط . هذا ذنبي أنا ، وكان أندرو يمزح فقط .

فتوقفت پيلاجيا ، مسترِيبة ، ولكنها ثابت إلى الطمأنينة تدريجياً ، عند ما رأت نظرة بلغت حداً كبيراً من الندم المخلص في وجه پيير ، ورأت الأمير أندرو يرمقها ، ويرمق پيير بنظرة من الوداعة والدماثة بمكان .

الفصل الرابع عشر

أُفرخ من روع المرأة الحاجة ، واستحثت على الحديث ، فتكلمت طويلاً عن الأب أمفيلوخس الذي كان يعيش حياة بلغ من قداستها أن كانت رائحة البخور تضوع من يديه ، وكيف سمح لها بعض مَن تعرفه من الرهبان أن تأخذ مفاتيح سراديب الجبانات الأرضية ، عند زيارتها الأخيرة في كييف ، وكيف أخذت شيئاً من الخبز المقدد معها ، وقضت يومين في السراديب مع القديسين .

ــ كنت أصلي لأحد القديسين فترة من الزمن ، وأتأمل فترة ، ثم أذهب لقديس آخر . وأنام قليلاً ، ثم أذهب فأقبّل بقايا القديسين ، وكان حوالىّ سلام ، وبركة ، حتى لا يريد المرء أن يخرج ثانية ولو إلى نور السماء .

كان پيير يصغي إليها بانتباه وجدّ . وخرج الأمير أندرو من الغرفة ،

ثم تركت الأميرة ماري «أولياء الله» يفرغون من تناول الشاي ، وصحبت بيير إلى غرفة الاستقبال .

وقالت له :

— أنت عطوف جداً .

— أوه ، لم أكن أقصد حقاً أن أوذي مشاعرها . إنني أفهمهم حق الفهم . وأكنّ لهم أعظم الاحترام .

فنظرت إليه الأميرة ماري صامتة ، وابتسمت بمودّة .

وقالت :

— إنني أعرفك منذ زمن طويل ، وأحبك كما أحب أخاً لي .

ثم أضافت متعجلة ، دون أن تتيح له الوقت لأن يجيب على كلماتها الودية :

— وكيف تجد أندرو ..؟ إنني قلقة له جداً . كانت صحته أفضل في الشتاء ، ولكن جرحه انفتح في الربيع ، وقال الطبيب أنه ينبغي له الذهاب للاستشفاء . وأنا أيضاً أخشى عليه كثيراً من الناحية الروحية . ليس له طبعنا نحن النساء ، فعند ما نتألم يسعنا أن نبكي فنغسل أحزاننا . لكنه يُبقي على كل شيء في دخيلة نفسه . وهو اليوم مبتهج طيب المزاج — لكن ذلك من أثر زيارتك ، فهو ليس ، في الغالب ، على مثل هذه الحال . لو استطعت اغراءه بالسفر إلى الخارج ..! إنه يحتاج إلى النشاط ، وهذه الحياة الهادئة المنتظمة تسيء إليه جداً . إن الآخرين لا يرون ذلك ، لكني أنا أراه .

وقرابة الساعة العاشرة اندفع الخدم من الرجال إلى الباب الأمامي ، عند سماع أجراس عربة الأمير الشيخ تقترب . ومضى الأمير أندرو ، وبيير ، إلى الشرفة أيضاً .

سأل الأمير الشيخ ، وقد لاحظ بيير عند ما نزل من العربة :

— من هذا ..؟

فلما عرف من هو الشاب الغريب الوافد قال :
— آه . ! أنا مسرور جداً ..! قبّلنى ..!
كان الأمير الشيخ طيب المزاج ، وكان كريماً جداً مع بيير .
وعاد الأمير أندرو ، قبل العشاء ، إلى مكتب أبيه ، فوجده فى غمرة نقاش حاد مع ضيفه كان بيير يقول أنه سيأتى وقت لن تكون فيه حروب . وكان الأمير الشيخ ينازع فى ذلك ، بحدة ، من غير أن يستشيط غضباً .
— أفرغْ شرايين الرجال من الدماء وَضَعْ فيها ماءً ، وعندئذ لن تعود هناك حرب ..! هذا لغو العجائز ..!
وردّد :
— لغو العجائز ..!
لكنه كان يربت كتف بيير ، مع ذلك ، بمحبة ، ثم مضى إلى المائدة التى جلس إليها الأمير أندرو يلقى نظرة على ما أتى به أبوه من أوراق فى عودته من المدينة ، وواضحٌ أنه لا يريد أن يشترك فى الحديث . فأقبل إليه الأمير الشيخ ، وأخذا يتحدثان فى العمل .
— إن المارشال ـ ويُدعى الكونت روستوف ـ لم يرسل نصف فرقته . جاء إلى المدينة وأراد أن يدعونى إلى الغداء ـ فأعطيته أحسن غداء ..! وهنا .. أنظر إلى هذا ..
ثم قال الأمير الشيخ لابنه ، وهو يربت كتف بيير :
— حسناً يابنىّ ولد عظيم ـ صديقك ـ إننى أحبه ..! إنه يحرّكنى ـ قد يقول شخص آخر كلاماً ذكياً ، لكن المرء لا يعنى بأن يصغى إليه ، أما هذا فإنه يقول هراء ، لكنه يستثير عجوزاً مثلى . حسناً ، اذهبوا ..! اذهبوا ..! قد آتى وأجلس معكم إلى العشاء . ونتناقش مرة أخرى .
وبعد أن خرج بيير ، صاح به من خلال الباب :
— كن صديقاً لبنتى الحمقاء الصغيرة ، الأميرة مارى .

لم يدرك پيير ، حق الإدراك ، قوة صداقته للأمير أندرو ، وسحرها ، إلا الآن ، فى زيارته لليسى جورى . لم يكن سحر هذه الصداقة يتمثل فى علاقاته به ، بقدر ما يتمثل فى علاقاته بأسرته ، وبأصحاب الدار . أحس پيير على الفور ، إحساس الصديق القديم ، بإزاء الأمير الشيخ الصارم ، والأميرة مارى الخجولة الرقيقة ، على أنه لم يكن يكاد يعرفهما من قبل . وكانوا جميعاً ، من الآن ، يحبونه جداً . فلم تكن الأميرة مارى فقط تعطيه أكثر نظراتها وضاءةً ونوراً ، وقد كسب قلبها بلطفه مع الرأتين الحاجتين ، بل حتى « الأمير نيكولاس » البالغ من العمر عاماً واحداً — فهذا ما يدعوه به جده — كان يبتسم لپيير ، ويستسلم له عند ما يأخذه بين ذراعيه . وكان ميشال إيڤانوڤيتش ، ومدموازيل بورين ، ينظران إليه بابتسامات لطيفة ، عند ما يتحدث إلى الأمير الشيخ .

جاء الأمير الشيخ إلى العشاء . وكان من الواضح أن ذلك يُعزى إلى وجود پيير . وكان كريماً أقصى الكرم معه ، خلال زيارته التى استغرقت يومين ، ودعاه لزيارتهم مرة أخرى .

فلما مضى پيير ، واجتمع أصحاب الدار معاً ، أخذوا يُفصحون عن آرائهم فيه ، كما يفعل الناس ، دائماً ، بعد أن يمضى أحد الأصدقاء الجدد . إلا أن أحداً لم يقل فيه إلا الخير ، وذلك شىء نادر الحدوث .

الفصل الثامن عشر

عند ما عاد روستوف من إجازته أحس للمرة الأولى مدى إحكام الأواصر التى تربطه بدينيزوف ، وبفرقته كلها .

فقد أحس عند ما اقترب من فرقته إحساسه عند ما كان يقترب من بيته فى موسكو . ولما رأى أول فارس ، من فرقته ، وحلته مفكوكة الأزرار ، وعرف فيه دمينتييف الأحمر الشعر ، ورأى حبال الأوتاد التى

تغقل الجياد الكُمْت بها ، وهتف لافروشكا جذلاً لسيده : «الكونت جاء ..!» ، فخرج دينيزوف الذى كان نائماً ، يجرى ، مشعثاً ، من الكوخ الطينّى ، ليعانقه ، وتحلّق الضباط لتحية الوافد الجديد ـ عندئذ أحس روستوف بنفس الشعور الذى خامره عندما عانقته أمه ، وأبوه ، وأخته ، وغصّ بدموع الفرح حتى أعجزه الكلام . كانت الفرقة أيضاً بيتاً ، وكانت شيئاً عزيزاً ثميناً ، لا حِولَ عنه ، كبيت أبويه .

ولما بلّغ عن نفسه لقائد الفرقة ، وأعيد إلى مركزه فى كتيبته القديمة ، وحلّ دوره فى تأدية واجبه فخرج يبحث عن العلف ، عندما دخل ثانية إلى نطاق المشاغل الصغيرة التى تهمه فى فرقته ، وأحس بنفسه محروماً من الحرية ، مقيداً فى إطار ضيق لا يحول ـ خامره عندئذ الإحساس بالراحة والسلام ، بالسنَد الروحى ، الإحساس بأنه هنا فى داره ، وفى موضعه ، نفس الإحساس الذى كان يخامره تحت سقف أبويه . على أنه لايوجد هنا شىء على الإطلاق من لغط العالم الواسع واضطرابه ، حيث لم يكن يعرف أين مكانه الصحيح ، وحيث كان يتخذ القرارات الزائغة عن الصواب ، هنا ليس ثمّ سونيا ، ينبغى له ، أو لا ينبغى ، أن يحدثها ويفسر لها الأمور . هنا ليس فى مُكنته أن يذهب هنا أو هناك ، هنا ليس ثمّ أربع وعشرون ساعة فى اليوم يسعه أن يقضيها على شتى الصور ، وليس هناك ذلك الحشد الذى لا عداد له من الناس والذى ليس فيهم واحدٌ أقرب إليه أو أبعد عنه من الآخرين ، وليست هناك تلك العلاقات المالية المائعة الغامضة التى تقوم بينه وبين أبيه ، ولا شىء يذكره بخسارته تلك المروّعة مع دولوخوف هنا كل شىء واضح وبسيط فى الفرقة . والعالم كله ينقسم قسمين غير متساويين: أحدهما فرقتنا ، فرقة بافلوجراد ، والآخر ما عداها جميعاً . وما عداها لايعنيه فى شىء. وكل شىء محدد فى الفرقة : مَن هو الملازم ومَنْ اليوزباشى، من هو الطيب ومن الردىء ، وفوق كل شىء مَنْ هو الزميل . وكان

صاحب الكانتين يقرض المرء ، ومرتب المرء يأتى كل أربع شهور ، ولا شىء تمحص فيه الفكر أو تقرره ، وعليك فحسب ألا تفعل ما يُعدّ فى فرقة باقلوجراد أمراً مشيناً ، وإذا تلقيت أمراً ، فعليك أن تؤدى الأمر ، إذا كان واضحاً محدداً لا شبهة فيه . وعندئذ يجرى كل شىء على ما يرام .

فلما دخل روستوف ثانية فى إطار ظروف حياة فرقته هذه ، أحس بالبهجة والراحة التى يحس بها المنهك ، بعد أن أرهقه الكلال ، عند ما يرقد ليستريح . وكانت الحياة فى الفرقة ، أثناء هذه الحملة ، أدعى للسرور عنده بعد خسارته مع دولوخوف ـ فلم يكن ليغفرها لنفسه ، على كل ما بذلته عائلته من جهود لكى تروّح عن نفسه همّ تلك الخسارة . كان قد آلى على نفسه على أن يكفّر عن جريرته ، لا بأن يؤدى عمله كما كان يفعل فيما سبق ، بل بأن يقوم بواجبه خير قيام ، وبأن يكون ضابطاً وزميلا من الدرجة الأولى ، وبكلمة واحدة ، أن يكون رجلا مدهشاً من كل النواحى ، وهو شىء يبدو شديد المشقة هناك «فى العالم» ، لكنه ممكن جداً وقريب ، فى الفرقة .

كان قد قرّ عزمه ، بعد خسارته ، أن يدفع دينه لأبويه فى مدى خمس سنوات . كان يقبض عشرة آلاف روبل فى العام ، لكنه عقد أمره الآن أن يأخذ منها ألفين فقط ، ويترك الباقى ليدفع دينه لأبويه .

* * *

كان جيشنا مُركزاً بالقرب من بارتينشتاين ، بعد أن تقهقر وتقدم عدة مرات ، واشتبك فى القتال عند بولتسوك ، وبروسيش ـ إيلاو . كان الجيش ينتظر مقدم الامبراطور ، وبدء حملة جديدة .

وكانت فرقة باقلوجراد تنتمى إلى ذلك الجانب الذى اشترك من الجيش فى حملة ١٨٠٥ ، وقد استكملت قوتها من المجندين الجدد فى روسيا ، وجاءت متأخرة عن أن تشترك فى أولى مواقع الحملة . فلم تكن فى

بولتسوك ، ولا فى بروسيش ـ إيلاو ، وعندما انضمت إلى الجيش فى الميدان ، فى النصف الثانى من الحملة ، ألحقت بلواء پلاتوف .

كان لواء پلاتوف يعمل مستقلاً عن الجانب الأكبر من الجيش . وكانت هناك أجزاء من فرقة باڤلوجراد قد تبادلت إطلاق النار مع العدو عدة مرات ، وأخذت منه أسرى ، بل أسرت عربات الماريشال أودينو فى ذات مرة . وكانت، فى أبريل ، قد لبثت مرابطة دون حراك ، منذ عدة أسابيع ، بالقرب من قرية ألمانية مهجورة لحقها الخراب الشامل .

كان الجليد قد بدأ يذوب ، والجو بارداً ، والأرض موحلة ، وقد تكسر الجليد على ضفاف النهر ، وانقطعت الطرق . ومنذ أيام لم تصرف مؤن للجنود ، ولا علف للجياد . ولما كان لا سبيل إلى وصول عربات النقل ، انتشر الجنود فى القرى المهجورة الخالية يبحثون عن البطاطس ، لكنهم لم يجدوا منها إلا القليل .

كان كل شىء قد أُتى عليه ، والسكان جميعاً قد هربوا ـ فإن بقى منهم أحد كان أسوأ حالاً من الشحاذين ، وليس فى الوسع أن يؤخذ منه شىء بعد . بل كان الجنود ، وهم فى العادة قساة تعوزهم كل رحمة ، يعطون مَن بقى من السكان آخر مؤونتهم ، عوضاً من أن يأخذوا منهم شيئاً .

كان قد جرح من فرقة باڤلوجراد جنديان فقط فى المعركة ، لكنها قد خسرت قرابة نصف رجالها من الجوع والمرض . كان الموت فى المستشفيات أمراً بلغ من يقين وقوعه أن الجنود عندما يعانون من الحمى ، أو الورم الناجم عن سوء التغذية ، كانوا يؤثرون البقاء فى الخدمة ، ويذهبون إلى الجبهة ولما يكادوا يطيقون أن يجروا أقدامهم ، بدلاً من الذهاب للمستشفيات . وعندما جاء الربيع وجد الجنود نبتة بازغة من الأرض تشبه نبات الهليون ، كانوا يسمّونها ، لسبب ما : « جذر ماشكا الحلو » . كانت مرّة جداً ، لكنهم كانوا يطوفون بالحقول فى طلبها ، وينتزعونها

بسيوفهم ويأكلونها ، على رغم الأوامر الصادرة بحظر أكلها ، لأنها نبات ضارّ . وتفشى مرض جديد بين الجنود فى ذلك الربيع ، هو ورم فى الساقين والذراعين والوجه ، عزاه الأطباء إلى أكل هذا النبات . وبالرغم من كل ذلك كان غذاء جنود كتيبة دينيزوف أساساً هو « جذر ماشكا الحلو » . فقد كان ذلك هو الأسبوع الثانى منذ أن صرفت آخر دفعة من البسكوت . على أساس نصف رطل للجندى ، وكانت آخر دفعة من البطاطس قد نمت لها جذور ، وتجمدت .

وكانت الخيل أيضاً ، منذ أسبوعين ، تأكل التبن المنتزع من السقوف ، وقد هزلت وغدت عجفاء إلى حد مروّع ، وإن كانت تكسوها خصل من شعر الشتاء اللبّد .

وبالرغم من هذا العوز المدقع مضى الجنود والضباط يعيشون كالمعتاد تماماً . كان الفرسان ، بالرغم من وجوههم المتورمة وحللهم المهلهلة ، يقفون فى الطابور لنداء التمام ، ويُبقون على الأمور فى نظامها ، ويعنون بخيلهم ويصقلون سلاحهم ، ويأتون بالقش من السقوف بدلاً من العلف ، ويجلسون إلى العشاء حول القدور ، وينهضون عنه جائعين يتبادلون النكات عن جوعهم وسوء طعامهم . وكانوا ، فى أوقات فراغهم ، يوقدون مواقد النار كالمألوف ، ويقفون حيالها عارين يتصاعد منهم البخار . ويدخنون ويلتقطون البطاطس المتعفنة التى نبتت لها جذور . فيطبخونها ، ويقصون الحكايات عن حروب بوتمكين وسوفوروف ، أو يصغون إليها ، أو عن أساطير آليشا الحصيف ، أو خادم القسيس ميكولكا .

وكان الضباط ، كالمألوف ، يعيشون مثنى وثلاثاً ، فى بيوت نصفها خرب لا سقوف لها ، وكان كبار الضباط يحاولون أن يجمعوا التبن أو البطاطس والطعام بصفة عامة ، لجنودهم وكان صغارهم يشغلون أنفسهم ، شأنهم فيما سبق ، بعضهم يلعب الورق ـ كان المال متوفراً وإن كان الطعام

لا وجود له ـ ويلعب بعضهم لعباً أكثر براءة ، كلعبة «السافايكا»(*) أو «الجورودكي»(*) وكان يندر أن يتجه الحديث إلى اتجاه الحملة العام ، إذ لم يكن هنـاك من يعرف عنه شيئاً مؤكداً ، من ناحية ، وكان هناك شعور غامض بأن الأمور تسوء بشكل عام ، من ناحية أخرى .

كان روستوف يعيش مع دينيزوف ، كما كان يفعل فيما سبق ، وكانت صداقتهما قد توثقت عراها منذ إجازتهما . لم يكن دينيزوف يتكلم مطلقاً عن عائلة روستوف ، على أن روستوف كان يشعر ، من الصداقة الحانية التى يبديها له قائده ، أن الحب العاثر الحظ الذى يكنّه الفارس الأكبر سناً لناتاشا كان يلعب دوراً فى توطيد صداقتهما . كان من الجلىّ أن دينيزوف يعالج ألا يعرض روستوف للخطر إلا بأقل ما يمكن ، وكان يقابل عودته سالماً بعد المعركة ، بفرح واضح . وفى إحدى المرات ، وجد روستوف عائلة مكونة من بولندى عجوز ، وابنته التى تحمل على ذراعها طفلاً ، فى أثناء إحدى حملاته للبحث عن العلف فى قرية مهجورة مخربة جاءها فى طلب المؤن . كانوا نصف عراة ، جائعين ، وأضعف من أن يرحلوا ماشين على الأقدام ، ولا سبيل أمامهم إلى الارتحال راكبين . فأتى بهم روستوف إلى مسكنه ، وأنزلهم فى غرفته ، وأبقى عليهم معهم بضع أسابيـع حتى استرد الرجل العجوز عافيته . وكان أحد زملاء روستوف يتحدث مرة عن النساء ، فأخذ يغمزه ويعرّض به قائلا أنه أكثرهم مكراً ، وأن الأمر لن يسوء لو أنه قدّم لهم البنت البولندية الحلوة التى أنقذها . فحمل روستوف تلك النكتة على محمل الإهانة ، واستشاطت ثائرته ، وقال للضابط ما يكره ،

(*) السافايكا : لعبة يقذف فيها مسمار غليظ الرأس لكى يقع فى داخل حلقة .

(*) الجورودكى : لعبة تنسق فيها عصى غليظة قصيرة على اشكال بعينها فى داخل مربع ، ولكل من الجانبين ، فى اللعبـة ، مربع خاص ، وعلى كل لاعب أن يرمى بدوره عصا يحاول بها أن يهدم مربع الجانب الآخر .

حتى أن دينيزوف بذل كل ما فى وسعه ليحول دون تطور الأمر إلى مبارزة. ثم مضى الضابط ، وكان دينيزوف لا يعرف ما عساه أن تكون علاقة روستوف بالفتاة البولندية ، فأخذ يقرّعه لحموّ طبعه وضيق صدره . فأجابه روستوف :

— قل ماشئت ... إنها كأختى . ولن يسعنى أن أخبرك كيف آلمنى .. لأنه .. حسناً .. لهذا السبب ..

فربت دينيزوف كتفه ، وأخذ يذرع الغرفة بسرعة من غير أن ينظر إلى روستوف ، دأبه عند ما تلجّ به المشاعر العميقة وتمتم :

— آه .. يا لكم من ذرية مجنونة ، أنتم آل روستوف ..!

ولاحظ روستوف الدموع فى عينيه .

الفصل السادس عشر

فى أبريل دبّت الحياة من جديد فى الجنود عند سماعهم أخبار مقدم الامبراطور . إلا أنه لم تتح لروستوف سانحة لحضور الاستعراض الذى أقيم له فى بارتينشتاين ، فقد كانت فرقة بافلوجراد فى المراكز الأمامية ، بعيداً عن ذلك الموضع .

كانوا معسكرين فى الخلاء . وكان دينيزوف وروستوف يقيمان فى كوخ طينى حفره الجنود ، وسقفوه بأغصان الشجر والحشائش . كان الكوخ مبنياً على النمط التالى الذى ذاع فى تلك الأيام : يُحفر خندق عرضه ثلاثة أقدام ونصف ، وعمقه أربعة أقدام وثمانى بوصات ، وطوله ثمانية أقدام . ويحتفر ، فى أحد طرفى الكوخ ، درجات سلّم يتكون منها المدخل والردهة . أما الخندق نفسه فهو الغرفة التى يملك فيها السعداء . مثل قواد الكتائب ، لوحةً من الخشب توضع على أكوام فى طرف الخندق المواجه

للمدخل ، فتقوم مقام المائدة . وعلى كلٍّ من جانبي الخندق تحفر التربة بحيث يكون عرضها نحو قدمين ونصف ، فتقوم مقام السرير والأرائك . ويُعد السقف بحيث يسع المرء أن يقف فى وسط الخندق ، بل يسعه أن يجلس على السرير إذا اقترب من المائدة وكان دينيزوف يعيش فى ترف ، لأن جنود كتيبته كانوا يحبونه ، فكان عنده أيضاً لوحة من الخشب فى الطرف الأقصى من السقف ، بها قطعة من الزجاج ـ مكسورة ، وإن كانت قد أصلحت ـ لتقوم مقام النافذة . وعند ما كان يشتد البرد كان يُؤتى بجذوات من النيران التى يوقدها الجنود فى معسكرهم ، وتوضع فى لوحة مثنيّة من الحديد ، على سلّم «غرفة الاستقبال» ، كما كان يدعو دينيزوف ذلك الجانب من الكوخ ، وعندئذ تبلغ الحرارة أن يجلس الضباط فى قمصانهم من غير جاكتات ، وكان يوجد دائماً بعض الضباط مع دينيزوف وروستوف .

كان روستوف يقوم بنوبة الحراسة الليلية ، فى أبريل . وفى ذات صباح ، عاد بين الساعة السابعة والثامنة ، بعد ليلة لا نوم فيها ، فأرسل فى طلب جذوات من النار ، وغيّر ملابسه الداخلية التى أغرقها المطر ، وتلا صلاته ، وشرب الشاى ، ودفىء ، ثم نسّق ما على المائدة وما فى ركنه الخاص من أشياء ، ونام على ظهره ، ووجهه يتألق مورداً من تعرضه للرياح ، ولا شىء على جسده إلا قميصه ، وقد وضع ذراعيه تحت رأسه . كان يتأمل ، بسرور ، احتمال ترقيته بعد بضعة أيام ، مكافأة له عن مهمته الاستطلاعية الأخيرة ، وكان ينتظر دينيزوف الذى كان قد خرج إلى مكان ما ، فقد كان يريد أن يتحدث إليه

وفجأة سمع دينيزوف يهتف بصوت رنان خلف الكوخ : وقد استثاره انفعال بالغ فيما هو جلىّ . فتحرك روستوف إلى المائدة ليرى من يكلّمه ، ورأى توپشيينكو ، صول التعيين .

كان دينيزوف يهتف :

ـ أمرتك ألا تدعهم يأكلون جذر ماشنكا هذا ..! ورأيت بعيني كيف أحضر لازارشوك من الحقول بعضاً منه .

أجاب صول التعيين :

ـ أصدرت الأمر مراراً وتكراراً يا صاحب السعادة . لكنهم لا يطيعون .

رقد روستوف ثانية على سريره ، وفكّر فى رضا :

ـ دعهم يشتغلون ، فقد فرغت من عملى ، وأنا أنام ـ على أحسن ما يرام ..!

كان بوسعه أن يسمع لافرشكا يتكلم ـ مراسلة دينيزوف الماكر الجسور ـ وصول التعيين أيضاً . كان لافروشكا يقول شيئاً ما عن عربات محملة ، وثيران ، وبسكوت ، كان قد رآها عندما خرج يبحث عن مؤونة .

ثم سمع صوت دينيزوف ثانية يهتف مبتعداً :

ـ إلى الخيول ..! الطابور الثانى ..!

ففكّر روستوف :

ـ أين يذهبون ..؟

وبعد خمس دقائق دخل دينيزوف الكوخ ، وصعد إلى سريره بحذاءه الموحل ، وأشعل غليونه ، وحزم سيفه ، وخرج ثانية . وقال رداً على سؤال روستوف أين هو ذاهب ، أنّ عنده شغلاً ، بحنق وغموض .

قال دينيزوف وهو يخرج :

ـ فليحكم علىّ الله ، ومليكنا العظيم ، فيما بعد ..!

وسمع روستوف سنابك جيادٍ كثيرة تطس الوحل . فلم يعن بأن يتبين أين ذهب دينيزوف . وبعد أن دفىء فى ركنه ، نام ، ولم يبارح الكوخ إلا قرابة المساء لم يكن دينيزوف قد رجع بعد . كان الجو قد

صفا ، وكان ضابطان وصف ضابط ، بالقرب من الكوخ التالى ، يلعبون الساقايكا ، ويضحكون إذ تذهب قذائفهم فتندفن فى الطين الطرى . فانضم إليهم روستوف . وفيما هم يلعبون رأوا عربات تقترب ، وخلفها خمسة عشر فارساً على جيادهم المجفاء . وقفت العربات ، وحرسها من الفرسان ، عند حبال الأوتاد ، وتحلّق حولها حشدٌ من الفرسان .

قال روستوف :

— حسناً ، كان دينيزوف مشغول البال ، وها هى ذى المؤونة .

فقال الضابط :

— فعلاً ..! كم سيفرح الجنود ..!

جاء دينيزوف بعد الفرسان بقليل ، يصحبه ضـابطان من المشاة يتحدث إليهما .

فمضى روستوف ليلقاهم .

كان أحد الضابطين ، وهو رجل قصير القامة ناحل العود ، وشديد الغضب فيما هو واضح للعيان ، يقول :

— إننى أحذرك يا كابتن

فأجاب دينيزوف :

— ألم أخبركما أننى لن أسلمها

— ستُسأل عن ذلك يا كابتن : هذا تمرد ـ الاستيلاء على عربات النقل التابعة لنفس جيشنا . إن جنودنا لم تأ كل شيئاً منذ يومين .

فقال دينيزوف :

— وجنودى لم يأ كلوا شيئاً منذ أسبوعين .

قال ضابط المشاة وهو يرفع صوته :

— هذه سرقة ..! ستُسأل عن ذلك يا سيدى ..!

فهتف دينيزوف وقد ضاق صدره فجأة :

— فيم تزعجنى الآن ..؟ أنا المسئول عن ذلك ، لا انت . ويحسن ألا تصرخ هنا ، وإلا أصابك السوء .

وصاح بالضابطين :

— اذهبا . ! اذهبا !

فهتف الضابط الصغير القامة ، دون أن تناله رهبة ودون أن يبتعد :

— حسناً جداً إذن ..! ما دمت مصمماً على السرقة ، فسأ...

فأدار دينيزوف حصانه نحو الضابط :

— اذهب إلى الشيطان ..! وبسرعة ، مادمت سليماً لم يلحقك سوء !

تمتم الضابط مهدداً :

— حسناً جداً ، حسناً جداً ..!

وأدار حصانه ، وذهب يخب به ، وهو يقفز فى سرجه .

صاح دينيزوف فى عقبه .

— كلب يمتطى السور ..! كلب فعلاً يمتطى السور ..!

وتلك أنكى إهانة يسع أحد الفرسان أن يلحقها بأحد المشاة الراكبين .

ثم أقبل إلى روستوف ، وانفجر ضاحكاً . وقال :

— أخذت عربات نقل من المشاة بالقوة ..! لا أستطيع أن أترك رجالنا يتضورون جوعاً ، فى نهاية الأمر ..

كانت العربات التى وصلت إلى الفرسان مقصوداً بها إلى فرقة من المشاة ، ولكن دينيزوف كان قد عرف من لافرشكا أنها غير مصحوبة بحرس ، فاستولى عليها بالقوة مع فرسانه . وصرف البسكوت للجنود دون تقتير ، بل تقاسموه مع الكتائب الأخرى .

وفى اليوم التالى أرسل قائد الفرقة فى طلب دينيزوف ، وقال له وهو يبسط أصابعه أمام عينيه :

— هذه نظرتى إلى المسألة : لا أدرى عنها شيئاً ، ولن أبدأ أية إجراءات ولكنى أنصحك أن تركب إلى أركان الحرب ، وتسوّى المسألة فى إدارة القيادة هنا ، وأن توقّع ، إذا أمكن ، إيصالاً باستلام كذا وكذا من المخازن . وإلا ثارت ضجة . وقد ينتهى الأمر شر نهاية ، إن أن الطلب قد قُيد على فرقة من المشاة .

خرج دينيزوف من عند قائد الفرقة ، وركب مباشرة إلى أركان الحرب ، وهو يرغب رغبة صادقة فى أن يتبع مشورته . وعاد فى المساء إلى خندقه ، فى حال لم يره روستوف عليها مطلقاً . لم يكن يستطيع أن يتكلم ، وكان يشهق فى التماس أنفاسه . فلما سأله روستوف ما الحكاية ، لم يلفظ إلا بشتائم وتهديدات غير مستبينة ، بصوت واهن أجش .

فانزعج روستوف لحالة دينيزوف . واقترح عليه أن يخلع ملابسه ، ويشرب قدحاً من الماء ، ويرسل فى استدعاء الطبيب .

تمتم دينيزوف :

— يحاكموننى بتهمة السرقة .. أوه ..! أعطني مزيداً من الماء ... فليحاكمونى ، لكننى سأجلد الأوغاد دائماً ... وسأقول للامبراطور ... اعطنى ثلجاً ...

فلما جاء طبيب الفرقة قال أن الضرورة الملحة تقضى بفصد دينيزوف. وأخذ من ذراعه الشعراء ملء صحفة عميقة من الدم الأسود ، وعندئذ فحسب كان بوسعه أن يقص ما حدث له :

— أذهبُ إلى هناك وأقول « والآن ، أين مقر رئيسكم ..؟ » فيشيرون إليه « انتظر من فضلك » « ركبت عشرين ميلاً ، ولدىّ واجبات علىّ القيام بها ، لا وقت عندى للانتظار ، فاعلن عن وصولى من فضلك » حسناً جداً ، يخرج رئيس عصابتهم من اللصوص ، ويخطر فى باله أن يلقى علىّ محاضرة « إنها سرقة ..! » فأقول « سرقة ..! ليست

السرقة هى عمل رجل يأخذ مؤونة ليطعم جنوده ، بل عمل من يأخذها ليملأ جيوبه ..! » « اسكت من فضلك ..! » « حسناً جداً ..! » ثم يقول « اذهب وسلّم المسئول إيصالاً ، ولكن مسألتك هذه سترفع إلى القيادة» . فأذهبُ إلى المسئول . وأدخل ، وإلى المائدة ... من تظن ..؟ لا ، إنتظر قليلاً ..!

وهتف دينيزوف . وهو يخبط ذراعه الحديثة العهد بالفصد ، بعنفٍ بلغ معه أن أوشكت المائدة أن تنهار ، وتواثبت عليها الأقداح :

— من تظنه يتركنا نتضور جوعاً ..؟ تليانين ..! « ماذا ..؟ فأنت إذن الذى تميتنا من الجوع ..! أنت ..؟ خذ ، وخذ ..! » وأضربه ، على وجهه . « آه .. يا له من .. يا له من .. » وأخذت أضربه ، وأجلده .

هتف دينيزوف ، جذلاً ومغضباً فى الوقت نفسه ، وقد تبدت أسنانه البيضاء من تحت شاربه :

— حسناً ، استمتعت تماماً ، أؤكد لك ..! وكنت سأقتله لو لم يأخذوه بعيداً ..!

قال روستوف :

— وعلام تصرخ ..؟ هدىء نفسك . هأنت جعلت ذراعك تنزف من جديد . انتظر ، يجب أن نربطها مرة ثانية .

عصُبت ذراع دينيزوف مرة أخرى ، ومضوا به إلى السرير . وفى اليوم التالى استيقظ هادىء النفس ، مبتهجاً .

وعند الظهر جاء ياور الفرقة إلى كوخ روستوف ، ودينيزوف ، وعلى وجهه سمات الجد والرصانة ، وأطلعهما ، آسفاً ، على ورقة موجهة إلى الماچور دينيزوف من قائد الفرقة ، يطلب فيها منه معلومات عن حادثة الأمس : وقال لهما الياور أن المسألة قد تتخذ مجرى خطيراً جداً . وأن

محكمة عسكرية قد شكلت ، ونظراً للقسوة التى يُنظر بها الآن إلى أعمال السلب والتمرد ، فإن أفضل ما يرجى هو إنزال رتبته إلى صفوف الجنود .

كانت القضية فى تصوير المجنى عليهم أن الماچور دينيزوف ، بعد الاستيلاء على عربات النقل ، ذهب فى حالة سكر إلى رئيس قسم التموين ، وقال له ، دون أى استفزاز ، أنه لص ، وهدد بضربه ، فلما أخرج من عنده ، اندفع إلى المكتب ، وضرب موظفين ، وأصاب أحدهما بخلع فى ذراعه .

وقال دينيزوف ضاحكاً ، رداً على أسئلة روستوف ، أنه يظن أن شخصاً آخر تدخل فى المسألة ، على أن المسألة كله لغو وهراء ، وهو لا يخشى أى محكمة على الإطلاق . فإذا جرؤ هؤلاء الأوغاد على مهاجمته لقنهم درساً لن يسهل عليهم نسيانه .

كان دينيزوف يتكلم عن المسألة كلها بازدراء ، إلا أن روستوف كان على خبرةٍ به أتاحت له أن يتبين خشيته ، فى قرارة نفسه . من المحكمة العسكرية ، وقلقه من المسألة التى كانت تتخذ . فيما هو جلى ، تطوراً خطيراً ، بينما هو يخفى مشاعره عن الآخرين وكل يوم كانت تصل من المحكمة خطابات استفهام ، وإخطارات ، وفى أول مايو صدر الأمر بأن يسلّم دينيزوف الكتيبة إلى أقدم الضباط بعده وأن يحضر أمام أركان حرب اللواء ، ليفسر عنف سلوكه فى مكتب إدارة القيادة . كان لواء بلاتوف قد خرج للاستطلاع ، فى اليوم السابق ، مع فرقتين من القوزاق وكتيبتين من الفرسان . وركب دينيزوف ، شأنه دائماً ، أمام المراكز الأمامية ، مستعرضاً شجاعته . فضربته رصاصة أطلقها أحد القناصة الفرنسيين ، فى سمّانة ساقه . ولعل دينيزوف ما كان ليترك الفرقة ، فى أى وقت آخر ، بسبب مثل هذا الجرح الطفيف . لكنه الآن أفاد من هذه السانحة ليعتذر عن الحضور أمام أركان الحرب ، وذهب إلى المستشفى .

الفصل السابع عشر

في يونيو وقعت معركة فرايد لاند ، ولم تشترك فيها فرقة بافلوجراد ، وبعد ذلك أعلنت هدنة . كان روستوف يفتقد صديقه جداً ، فلم تبلغه أنباء عنه منذ ذهب ، وكان القلق يساوره بصدد جرحه ، وتطور قضيته ، فانتهز فرصة الهدنة ليحصل على إجازة حتى يزور دينيزوف في المستشفى .

كان المستشفى في بلدة بروسية صغيرة خربتها القوات الروسية والفرنسية مرتين وكان الوقت صيفاً ، حين يكون المشهد بالغ الجمال في الخلاء بين الحقول ، لذلك كانت البلدة الصغيرة تبدو بمظهر موحش مقبض ، بسقوفها وأسوارها المنهارة المهدمة ، وشوارعها البالغة القذاوة وسكانها المهلهلين ، والجنود السكارى والمرضى الذين يطوفون بأنحائها .

كان المستشفى في بناء من الطوب بعض خصاص نوافذه وزجاجها مكسور ، وفناؤها يحيط به سور خشبي انتزعت أجزاؤه وتحطمت . وفي الفناء بعض الجنود يجلسون أو يتمشون ، بوجوه شاحبة وارمة ، في الشمس .

وما أن تجاوز روستوف الباب حتى غشيته رائحة العفن ، وجو المستشفى . والتقى على السلم بطبيب من الجيش الروسي يدخن سيجاراً ، يتبعه مساعد روسي .

كان الطبيب يقول .

— لا أستطيع أن أمزق نفسي. تعال في المساء عندما كار ألكسييڤتش ، سأكون هناك .

فسأله المساعد بضع أسئلة أخرى .

— أوه . افعل أفضل ما تستطيع ..! أليس الأمر سواء ..؟

لاحظ الطبيب روستوف وهو يرقى السلالم . فقال :

— ماذا تريد يا سيدى ..؟ ماذا تريد ..؟ نجوت من الرصاص ، فهل تريد أن تصاب بالتيفوس ..؟ هذه مباءة للطاعون يا سيدى .

فسأل روستوف :

— كيف ذلك ؟

— التيفوس يا سيدى . الدخول هنا معناه الموت . نحن الاثنين فقط ، ما كيف وأنا (وأشار إلى المساعد) نواصل البقاء هنا . مات منا نحو خمسة أطباء ، فى هذا المكان ...

ثم قال برضاء واضح :

— وعند ما يأتى قادم جديد ، ينتهى فى مدى أسبوع ، وقد دعى الأطباء البروسيون للحضور هنا ، لكن حلفاءنا لا يعجبهم هذا بالمرّة .

فقال روستوف أنه يريد أن يزور الماچور دينيزوف ، من الفرسان ، وقد كان أصيب بجرح .

— لا أعرف . لا أستطيع أن أدلك عليه . تصوّر..! إننى وحدى مسئول عن ثلاثة مستشفيات بها أكثر من أربعمائة مريض ..! ومن الخير أن السيدات البروسيات المحسنات يرسلن لنا لترين من اللبن وشيئاً من القطن كل شهر ، وإلا ضعنا ..!

وضحك :

— أربعمائة يا سيدى . ويرسلون لى دائماً أناساً جدداً .

وسأل ملتفتاً إلى مساعده :

— هناك منهم أربعمائة فعلاً ..؟ هه ..؟

كان المساعد يبدو مرهقاً بالغ التعب . وكان جليا أنه ضيّق الصدر بالطبيب الثرثار ، نافد الصبر فى انتظار ذهابه .

قال روستوف ثانية :

— الماچور دينيزوف . جُرح فى موليتين .

فتساءل الطبيب بلهجة اللامبالاة :

ـــ مات يا ما كيف ، فيما أظن ..؟ هه ..؟

إلا أن المساعد لم يؤيد كلمات الطبيب .

سأل الطبيب :

ـــ أهو طويل القامة ، وشعره محمر ..؟

فوصف روستوف مظهر دينيزوف .

قال الطبيب ، كما لو كان مسروراً :

ـــ نعم ، كان هنا واحد بهذا الوصف . وهو قد مات فيما أظن . إلا أنني سأنظر في قائمتنا . كان عندنا قائمة . هل هي معك يا ما كيف ..؟

قال المساعد :

ـــ القائمة عند ما كار الكسيفتش .

وأضاف ملتفتاً إلى روستوف :

ـــ على أنك إذا أتيت إلى عنابر الضباط ستتحقق بنفسك .

قال الطبيب :

ـــ يحسن أن تمضي يا سيدي . وإلا اضطررت للبقاء هنا أنت نفسك.

لكن روستوف انحنى للطبيب مبتعداً عنه ، وطلب من المساعد أن يدله على الطريق .

صاح الطبيب وراءه :

ـــ لا تلق عليّ باللائمة . !

دخل روستوف والمساعد إلى ممر معتم . وبلغ من قوة الرائحة أن سدّ روستوف أنفه ، واضطر أن يتوقف، ويستجمع قواه قبل أن يواصل سيره انفتح باب إلى اليمين ، وخرج منه رجل ضامر كالح الوجه ، يعرج على عكازتين ، حافياً ، يرتدي ملابسه الداخلية ، واستند إلى قائم الباب ، وهو ينظر بعينين متألقتين يلمع فيهما الحسد ، إلى أولئك الذين مروا به .

رمق روستوف الحجرة ، فرأى المرضى والجرحى ممددين على الأرض ، على القش ، والمعاطف .

— هل أستطيع أن أدخل وألقى نظرة ..؟

فقال المساعد :

— أى شىء هناك تراه ؟

إلا أن روستوف دخل عنبر الجنود ، لأن المساعد ، فيما هو واضح . لم يكن ليريده أن يدخل . كان الهواء العفن الذى قد بدأ يألفه الآن فى الممر ، أقوى عفناً هنا . كان الهواء مغايراً قليلاً هنا ، أشد لذعاً وزهمة ، وكان المرء يحس أنه يصدر من هنا بالذات .

كان المرضى والجرحى يرقدون فى صفين ، رؤوسهم إلى الحائط ، وهناك ممر بين الصفين ، فى الغرفة الطويلة التى ينيرها ضوء الشمس الساطع من النوافذ الكبيرة . كان معظمهم غائباً من الوعى ، فلم يلقوا بالاً للقادمين الجديدين . أما من كانوا متمالكين وعيهم فقد رفعوا أنفسهم ، أو رفعوا وجوههم الصفراء الهزيلة ، ونظروا جميعاً نظرات ملحّة إلى روستوف ، كلها تنم عن الأمل ، والراحة ، والعتاب ، والحسد لصحة شخص آخر . مضى روستوف حتى منتصف الغرفة ، ونظر من خلال الأبواب المفتوحة إلى الغرفتين المجاورتين . فرأى المشهد بعينه . وقف ساكناً ينظر حواليه بصمت . لم يكن مثل هذا المشهد فى حسبانه على الإطلاق وأمامه بالضبط ، فى وسط الممر تقريباً ، كان يرقد مريض لعله قوزاقى ، كما يبدو من طريقة قص شعره . كان الرجل يرقد على ظهره ، ذراعاه وساقاه ، ضخمة هائلة ، ممدودة . كان وجهه محتقناً ، وقد دار حملاقا عينيه إلى الخلف حتى لم يعد يرى منهما إلا بياضهما ، وكانت الشرايين نافرة كأنها الحبال فى ساقيه العاريتين وذراعيه ، وقد كانت ما تزال حمراء اللون . كان يخبط مؤخرة رأسه بالأرض ، ويلفظ بضع كلمات ما يفتأ يرددها بصوت أبح . أصغى

إليه روستوف فتبين الكلمات : ماء ..! ماء ..! ماء ..! فرمق روستوف حواليه ، يبحث عن شخص يردّ هذا الرجل إلى موضعه ، ويأتى له بجرعة ماء .

وسأل الساعد :

— من يعنى بالمرضى هنا ..؟

وعندئذ جاء من الغرفة المجاورة جندى من الإدارة ، هو أحد مرضى المستشفى ، يمشى بتصلب ، ووقف أمام روستوف ، وقفة انتباه .

وصاح :

— نهارك سعيد يا صاحب السعادة .

وهو يدحرج حملاقى عينيه أمام روستوف ، وقد ظنه ، فيما هو جلى ، أحد ضباط المستشفى .

قال روستوف مشيراً إلى القوزاقى :

— ارجعه إلى موضعه ، واحضر له ماء .

فأجاب الجندى ، راضياً عن نفسه :

— نعم يا صاحب السعادة .

وزاد من دحرجة حملاقى عينيه ، وشدّ من قامته أيضاً ، لكنه لم يتحرك.

فخطر لروستوف ، وهو يغض عينيه :

— لا ، من المستحيل عمل أى شىء هنا .

وهمّ بالخروج ، لكنه أحس نظرة ملحّة مثبتة عليه من اليمين ، فالتفت . كان يجلس بالقرب من الركن جندى عجوز غير حليق أشيب اللحية ، فى معطفه ، ناحلاً نحول هيكل عظمى ، وجهه صارم مربد كالح ، وعيناه مثبتتان على روستوف بإلحاح . همس جار الرجل إليه شيئاً ، مشيراً إلى روستوف ، ولاحظ روستوف أن الرجل يريد أن يكلمه . فاقترب ، ورأى أن الرجل العجوز ليس له إلا ساق واحدة مثنية تحته ، وقد بترت

الأخرى من فوق الركبة . أما جاره من الجانب الآخر ، فقد كان يرقد بلا حراك ، على شيء من البعد عنه ، وقد ألقى برأسه إلى الوراء ، وكان شاباً ذا أنف أفطس . كان وجهه الشاحب الشمعي ما زال يكسوه النمش ، وكانت عيناه قد تدحرج حملاقاهما إلى الخلف . نظر روستوف إلى الجندى الشاب ، وسرت فى ظهره قشعريرة باردة .

وبدأ يقول ، ملتفتاً إلى المساعد :

— يا لله .. يبدو أن هذا ..

فقال الجندى العجوز ، وفكّه يرتجف :

— وكم توسلنا يا صاحب السعادة . مات منذ الصباح . إننا رجال فى نهاية الأمر ، ولسنا كلاباً .

فتعجل المساعد القول :

— سأرسل أحداً على الفور . وسيؤخذ بعيداً ، سيؤخذ بعيداً على الفور . فلنذهب يا صاحب السعادة .

فقال روستوف بسرعة :

— نعم ، نعم ، فلنذهب .

وغض عينيه ، وحاول أن يمر ، وهو منكمش الجسم ، دون أن يلحظه أحد ، بين صفى العيون العاتبة الحاسدة الشاخصة إليه . وخرج من الغرفة .

الفصل الثامن عشر

مضى المساعد فى الممر يسبق روستوف إلى عنابر الضباط التى تتكون من ثلاث غرف كانت مفتوحة الأبواب . كان فى هذه الغرف سرر ، وكان الضباط المرضى والجرحى يرقدون أو يجلسون عليها . وكان بعضهم يتمشى فى الغرف ، مرتدين أرواب المستشفى . كان أول من لقيه روستوف فى

عنبر الضباط رجلا نحيلاً صغير القامة ، بذراع واحدة ، يتمشى فى الغرفة الأولى مرتدياً قلنسوة النوم ، وروب المستشفى ، وبين أسنانه غليون . نظر إلى روستوف يحاول أن يتذكر أين رآه من قبل .

قال الرجل الصغير القامة :

— أنظر أين نلتقى مرة أخرى ..! توشين ، توشين ، ألا تتذكر ..؟ ذلك الذى أخذك فى العربة ، شون جرابيرن .. وقد قُطعت منى قطعة كما ترى ...

وأشار إلى كمه الخالى ، مبتسماً ، وأضاف عند ما سمع ما يريد روستوف:

— أتبحث عن ڤاسيلى دمتريڤيتش دينيزوف ..؟ جارى . هنا ، هنا .

وأفضى به توشين إلى الغرفة المجاورة التى كانت تصدر عنها أصوات ضاحكة .

فخطر لروستوف ، وهو ما زال يحس رائحة الأجساد المتحللة التى كانت شديدة العنف فى عنبر الجنود ، وما زال يبدو له أنه يرى هذه النظرات الحاسدة الشاخصة إليه ، تتبعه من كلا الجانبين وهو يخرج ، ووجه هذا الجندى الشاب الفاغر العينين :

— كيف يسعهم أن يضحكوا . بل أن يعيشوا على الإطلاق هنا ..؟

كان دينيزوف نائماً على سريره ، رأسه تحت البطانية ، على أن الظهر كان قد أوشك أن يعلو ، ونادى بصوته المألوف فى الفرقة :

— آه روستوف .. ؟ كيف حالك .. ؟ كيف حالك .. ؟

إلا أن روستوف لاحظ تحت هذه الحيوية المألوفة ، وما عهد عنه من يُسر فى السلوك ، شعوراً مخبوءاً جديداً رهيباً ، يبدو فى التعبير الذى يتخذه وجه دينيزوف ، وفى نبرات صوته .

لم يكن جرحه ، بالرغم من قلة شأنه ، قد التأم حتى الآن ، بعد ستة أسابيع منذ أن أصيب به . وكان وجهه شاحباً وارماً كغيره من المرضى

فى المستشفى ، على أن ذاك لم يكن الشىء الذى استرعى اهتمام روستوف . كان ما صدمه أن دينيزوف لم يبدُ عليه السرور لمرآه ، وكان يبتسم له ابتسامة غير طبيعية . ولم يسأله عن الفرقة ، ولا عن الحالة العامة لتلك الحياة الأخرى ، الحرة ، التى تدور فى خارج المستشفى . كان يبدو أنه يعالج نسيان تلك الحياة القديمة ، ولا يهتم إلا بقضيته مع ضباط الإدارة . فلما سأله روستوف كيف كان الوضع فى تلك المسألة أخرج من تحت مخدته ، على الفور ، ورقة تلقاها من اللجنة ، ومسودة رده عليها . وعند ما أخذ يقرأ ورقته انفعل واكتسب حيوية ، ولفت نظر روستوف ، على الأخص ، إلى الردود اللاذعة التى أجاب بها على أعدائه . وكان زملاؤه فى المستشفى بعد أن تحلقوا حول روستوف ـ ذلك الوافد الجديد من العالم الخارجى ـ قد أخذوا يتفرقون بالتدريج حالما بدأ دينيزوف يقرأ ورقته . ولاحظ روستوف من وجوه أولئك السادة جميعاً أنهم قد سمعوا تلك الحكاية أكثر من مرة ، ونالهم السأم منها . إلا أن الرجل الذى كان يشغل السرير المجاور ، وهو ضابط جسيم البدن من فرقة الأوهلان لبث جالساً على سريره عابساً جهم الوجه ، يدخن غليونه ، وبقى توشين الصغير القامة الوحيد الذراع يصغى ، وهو يهز رأسه فى إنكار . وقاطع ضابط الأوهلان دينيزوف فى وسط قراءته ، وقال ملتفتاً إلى روستوف :

ـــ إن ما أقول هو أنه يحسن أن يرفع التماساً إلى الامبراطور يطلب العفو ، ببساطة . يقولون أنه ستوزع الآن مكافآت عظيمة ، وسوف يمنح العفو بالتأكيد ...

فهتف دينيزوف بصوت عالج ، عبثاً ، أن يكسبه الوقدة والقوة القديمة لكنه بدا كأنه تعبير عن العجز المحنق المغيظ :

ـــ أنا ألتمس العفو من الامبراطور ..! لمَ ..؟ لو أننى كنت لصاً لطلبت الرحمة ، لكننى أحاكم أمام محكمة عسكرية لأننى ألقيت درساً على

اللصوص . دعهم يحاكموننى ، لست أخشى أحداً لقد خدمت القيصر والوطن بشرف ، ولم أسرق ..! هل تُنزل رتبق ..؟ اسمع ، إننى كتبت لهم صراحة . وهذا ما أقول : لو أننى كنت قد سرقت الخزانة العامة ...

قال توشين :

— إنك أحسنت الكتابة قطعاً ، لكن تلك ليست هى المسألة ، يا ڤاسيلى دمتريڤتش .

والتفت هو أيضاً إلى روستوف :

— يجب على المرء أن يخضع ، ولكن ڤاسيلى دمتريڤتش لا يريد . أنت تعرف أن المراقب قال لك أن المسألة خطيرة .

قال دينيزوڤ :

— فلتكن خطيرة

استطرد توشين :

— كتب لك المراقب التماساً ، وينبغى لك أن توقع عليه وتطلب من هذا السيد أن يأخذه . ولا شك أن له (وأشار إلى روستوف) صلات ومعارف فى إركان الحرب . لن تجد فرصة أفضل .

فقاطعه دينيزوڤ :

— ألم أقل أننى لن أركع وأتوسل ..؟

ومضى يقرأ ورقته .

لم يكن لروستوف من الشجاعة ما يدعوه لإقناع دينيزوڤ ، وإن كان قد أحس ، بغريزته ، أن آمن سبيل هو ما نصح به توشين والضباط الآخرون ، وعلى أنه كان ليسعده أن يؤدى خدمة لدينيزوڤ ، لكنه كان يعرف عناده ، وخُلقه الحامى المتعجل المستقيم .

فلما فرغ دينيزوڤ من قراءة ردّه العنيف ، وقد استغرق أكثر من ساعة ، لم يقل روستوڤ شيئاً ، وقضى سحابة يومه فى أشد الحالات

كآبة وهبوطاً بين زملاء دينيزوف فى المستشفى الذين تحلقوا حوله ، وهو يقول لهم ما عنده من أخبـار ، ويصغى إلى ما عندهم . وكان دينيزوف صامتاً ، كدر المزاج . طيلة المساء .

وفى آخر المساء ، عند ما همّ روستوف بالذهاب ، سأل دينيزوف ما إذا كان بوسعه أن يؤدى له طلباً .

قال دينيزوف وهو يرمق الضباط حواليه :

— نعم ، انتظر لحظة .

وأخرج أوراقه من تحت مخدته ، ومضى إلى النافذة ، حيث كانت له محبرة ، وجلس ليكتب .

وقال آتياً من عند النافذة ، وهو يعطى روستوف ظرفاً كبيراً :

— يبدو ألا جدوى من أن يخبط المرء رأسه بالحائط ..!

كان فى الظرف الالتماس المرفوع إلى الامبراطور ، وقد كتبه المراقب ، وكان دينيزوف ، دون أن يشير فيه إلى ما اقترفه ضباط الادارة ، يطلب العفو ، ببساطة .

— سلّمه .. فيبدو أن ..

لم يكمل ، بل ابتسم ابتسامة غير طبيعية حتى لتستثير الألم .

الفصل التاسع عشر

غاد روستوف إلى الفرقة ، وأنبأ القائد بوضع قضية دينيزوف ، وركب إلى تيلسيت ، ومعه الخطاب المرفوع إلى الامبراطور .

فى الثالث عشر من يونيو وصل إلى تيلسيت الامبراطوران الروسى ، والفرنسى . كان بوريس درويبتسكوى قد طلب من الشخص البارز المكانة الذى كان ملحقاً بخدمته أن يضمه للحاشية المعينة للبقاء فى تيلسيت .

وقال وهو يومىء إلى نابليون :

— أحب أن أرى الرجل العظيم .

وقد كان يدعوه بوناپرت ، حتى ذلك الحين ، شأنه شأن الجميع .

فسأله الچنرال باسماً :

— أنت تقصد بوناپرت ..؟

فنظر بوريس إلى الچنرال متسائلاً ، ورأي على الفور أنه فى موضع الاختبار . فقال :

— أنا أقصد الامبراطور ناپليون ، أيها الأمير

فربت الچنرال كتفه باسماً . وقال :

— ستذهب بعيداً ..

وأخذه معه إلى تيلسيت .

كان بوريس من القلائل الذين كانوا عند نهر نيمين ، يوم أن التقى الامبراطوران . رأى الرمث المجلل بالحروف الأولى من إسميهما ، وشاهد ناپليون يستعرض الحرس الفرنسى على الضفة الأخرى من النهر ، وشاهد وجه الامبراطور ألكسندر ، مفكراً ، وهو يجلس صامتاً فى خانٍ على شاطىء نيمين فى انتظار وصول ناپليون ، ورأى الامبراطورين كلهما يستقلان القوارب ، ورأى كيف أن ناپليون ، وقد بلغ الرمث أولاً ، خطا إلى الأمام بسرعة ليستقبل ألكسندر ، ومد إليه يده ، وكيف ذهبا ، كلاهما ، إلى المقصورة المعدة لهما .

منذ أن أخذ بوريس يختلط بالأوساط العليا كان من دأبه أن يرقب ، بانتباه ، كل ما يدور حوله ، وأن يكتب بذلك مذكرات وعند اللقاء الذى تم فى تيلسيت ، سأل عن أسماء أولئك الذين قدموا مع ناپليون ، وعن الزى الرسمى الذى كانوا يرتدونه ، وكان يصغى بانتباه إلى ما يقوله كبار القوم . وعند ما دخل الامبراطوران المقصورة نظر إلى ساعته ، ولم ينسى أن ينظر إليها عند ما خرجا . كان حديثهما قد استغرق ساعة

وثلاثة وخمسين دقيقة . فكتب ذلك ، ليلتها ، بين حقائق أخرى قدّر لها أهميتها التاريخية . ولما كانت حاشية الامبراطورين صغيرة جداً ، كان من الأشياء البالغة الأهمية عند شخص يسعى وراء النجاح فى حياته العملية ، أن يكون فى تيلسيت عند هذا اللقاء بين الامبراطورين ، فلما بلغ بوريس ذلك أحس أن مكانته منذ اليوم قد توطدت ورسخت أسبابها . لم يكن قد أصبح معروفاً فحسب ، بل كان الناس قد ألفوه ، وقبلوه . وقام بمهمتين للامبراطور نفسه ، فكان الأخير يعرف وجهه . وكان سائر القوم فى البلاط أبعد ما يكونون عن لقائه بالجفوة والنبوّ كما حدث فى أول الأمر ، عندما كانوا يعدونه دخيلاً جديداً ، بل كانوا ليدهشوا اليوم لو أنه غاب .

كان بوريس يقيم مع ياور آخر ، هو الكونت زيلينسكى البولندى . وكان زيلينسكى بولندياً نشأ وتعلم فى باريس ، وثرياً ، وشديد الكلف والولوع بالفرنسيين ، وكان يتغدى أو يتعشى معه وبوريس ضباط فرنسيون من الحرس ، أو من القيادة الفرنسية ، كل يوم تقريباً ، فى أثناء الإقامة فى تيلسيت .

وفى مساء الرابع والعشرين من يونيو كان الكونت زيلينسكى قد أدب عشاءً لأصدقائه الفرنسيين . كان ضيف الشرف هو أحد ياورى نابليون ، وهناك أيضاً عدة ضباط فرنسيون من الحرس ، ووصيفٌ لنابليون ـ هو فتى من عائلة أرستقراطية فرنسية عريقة . وفى ذلك اليوم بعينه انتهز روستوف فرصة الظلام حتى يتفادى التعرف عليه فى زيه المدنى ، وأتى إلى تيلسيت ، ومضى إلى البيت الذى يقيم فيه بوريس وزيلينسكى .

كان بوريس ، شأنه فى ذلك شأن الجيش الذى ينتمى إليه بأسره ، أبعد من أن يكون قد خبر تبدّل المشاعر الذى طرأ حيال نابليون والفرنسيين ، وقد تحولوا من أعداء إلى أصدقاء . عند القيادة وعند بوريس . كان نابليون والفرنسيون ما زال ينظر إليهم فى الجيش بشعور

خليط من الغضب والازدراء والخوف . وكان روستوف قد تحدث أخيراً إلى أحد الضباط القوزاقيين من فرقة پلاتوف ، وقال أن ناپليون لو وقع أسيراً فلن يعامل معاملة الملوك بل معاملة المجرمين . واتفق أن التقى روستوف أخيراً بكولونيل فرنسى جريح على الطريق ، فقال ، حامياً مستشيطاً ، أن السلام مستحيل بين ملك شرعى والمجرم بوناپرت. لذلك بُغت روستوف بما يكره ، بحضور الضباط الفرنسيين فى بيت بوريس ، فى زى كان قد اعتاد أن يراه هو بعين جد مغايرة ، من المراكز الأمامية على الجبهة . وما أن رأى ضابطاً فرنسياً رفع برأسه مطلاً من الباب حتى استأثر به فجأة شعور المحارب ذاك الذى كان يعتريه لمرأى العدو . فوقف على العتبة ، وسأل ، بالروسية ، ما إذا كان دروبيتسكوى يقيم هناك . سمع بوريس صوتاً غريباً فى الردهة ، وخرج ليلقاه . وتبدى على وجهه ، لحظة ، تعبير عن الضيق عند ما تعرف ، بداهةً ، على روستوف .

على أنه قال وهو يقبل عليه بابتسامة :

ــ آه ، أهذا أنت ..؟ يسرنى جداً ، يسرنى جداً أن أراك .

لكن روستوف لاحظ ما أحسه بوريس لأول وهلة .

فقال ببرود :

ــ جئت فى وقت غير مناسب ، فيما أظن . لم أكن لأجىء لولا أن عندى عملاً .

ــ لا ، ولكنى مندهش كيف اتفق لك أن تفلت من فرقتك .

ثم قال بالفرنسية يرد على من ناداه :

ــ سأكون تحت تصرفك بعد لحظة .

فردد روستوف :

ــ أرى أننى متطفل .

كانت نظرة الضيق قد ذهبت من وجه بوريس ، كان جلياً أنه تأمل

الموقف ، وعقد عزمه على أسلوب تصرفه ، فأخذ يدى بوريس كلتيهما ، بهدوء بالغ ، وأفضى به إلى الغرفة المجاورة . كانت عيناه تنظران بثبات وصفاء إلى روستوف ، تلوحان كأن شيئاً ما يقنعهما كأنما تحجبهما نظارات زرقاء ، من اتباع أصول التقاليد المرعية . أو هكذا بدا الأمر عند روستوف.

قال بوريس :

— هيا ، هيا ..! أيمكن أن تأتى أبداً فى لحظة غير مناسبة ..!

وأفضى به إلى الغرفة التى مدت فيها مائدة العشاء ، وقدمه لضيوفه قائلا أنه ليس مدنياً بل ضابطاً من الفرسان ، وأحد أصدقائه القدامى .

قال يسمى ضيوفه ، بالفرنسية :

— الكونت زيلينسكى ـ الكونت ن . ن . ـ الكابتن س . س .

فنظر روستوف عابساً إلى الفرنسيين ، وانحنى ، على مضض وكراهة ، ولزم الصمت .

كان واضحاً أن زيلينسكى لم يستقبل هذا الروسى الجديد بكبير ترحاب فى دائرته ، فلم يوجه إليه الخطاب . ولم يبد على بوريس أنه لاحظ التوتر الذى نجم من وصول القادم الجديد ، فعالج أن يكسب الحديث حياة وحرارة ، وهو رابط الجأش ، دأبه دائماً ، وفى عينيه نفس تلك النظرة المقنّعة التى قابل بها روستوف . خاطب أحد الفرنسيين روستوف ، بحسن الأدب الذى يمتاز به مواطنوه ، فقال له ، على رغم التزامه الصمت فى عناد ، أنه عساه جاء إلى تيلسيت ليرى الامبراطور .

فأجاب روستوف بإيجاز :

— لا ، إنما جئت فى عمل .

كان روستوف منحرف المزاج من ساعة أن لاحظ نظرة الضيق والتبرم على وجه روستوف ، وبدا له ، كما يحدث دائماً لمن كان ضيّق الصدر أن الجميع ينظرون إليه بنفور ، وأنه يعوق طريق الجميع . وكان فى الحق

يعوق طريقهم ، فقد كان وحده لا يشترك فى الحديث بنصيب ، وقد عاد الحديث ثانية يدور فى موضوعات عامة . كان يبدو أن نظرات الضيوف الملقاة عليه تقول « فيم يجلس هذا هنا ..؟ » فنهض ومضى إلى بوريس . وقال بصوت خفيض :

— إننى متقحّم عليكم ، على أى حال . تعال نتحدث فى موضوعنا ، وسأذهب .

قال بوريس :

— أبداً ، أبداً . لكنك إن كنت متعباً فتعال وتمدد فى غرفتى . وخذ نصيباً من الراحة .

— نعم ، فى الحقيقة ...

مضيا إلى الغرفة الصغيرة التى ينام فيها بوريس . وبدأ روستوف ، دون أن يجلس ، يخبر بوريس على الفور ، بحكاية دينيزوف ، فى حنق وبرَم ، كما لوكان بوريس ملوماً بشكل ما ، وسأله ما إذا كان بوسعه ، وما إذا كان ليقبل أن يتوسط ، عن طريق قائده ، لدى الامبراطور ، فى صالح دينيزوف ، ويعنى بأن يصل إليه الالتماس . عند ما وجد روستوف نفسه وحده مع بوريس ، أحس ، للمرة الأولى ، أنه لن يستطيع النظر إليه مواجهة دون الشعور بالحرج . جلس بوريس وقد وضع ساقاً على الأخرى ، وأخذ يربت يده اليسرى بأصابع يده اليمنى الرقيقة ، وأصغى إلى روستوف ، كما يصغى جنرال إلى تقرير يرفعه إليه أحد مرؤوسيه ، ينظر حيناً إلى جنب ، وحيناً آخر إلى عينى روستوف مواجهة ، بنفس النظرة المقنّعة . وكلما حدث ذلك خامر روستوف شعورٌ بالقلق ونبوّ الراحة ، وغض عينيه .

— سمعت عن مثل هذه القضايا ، وأنا أعرف أن صاحب الجلالة ينظر إليها بصرامة شديدة . وفى رأيى أنه لا يحسن أن تُرفع إلى الامبراطور

بل أن يُقدم طلب إلى قائد السلاح .. وإن كان من رأيى .. بصفة عامة .

فقال روستوف ، بصوت يوشك من ارتفاعه أن يكون هتافاً ، وهو لا ينظر إلى بوريس مواجهة :

— فأنت لا تريد أن تفعل شيئاً ..؟ حسناً ، قل ذلك إذن ..!

فابتسم بوريس :

— بالعكس ، سأفعل ما بوسعى . وإن كان من رأيى ..

فى تلك اللحظة سمع صوت زيلينسكى ينادى بوريس .

قال روستوف :

— حسناً إذن ، اذهب ، اذهب ..

ورفض الدعوة إلى العشاء ، وبقى وحده فى الغرفة الصغيرة ، يذرعها جيئة وذهاباً فترة من الوقت طويلة ، وهو يسمع الحديث الذى يتناهى إليه من الغرفة المجاورة ، باللغة الفرنسية ، يصدر عن قلوب خلية خفيفة .

الفصل العشرون

كان روستوف قد جاء إلى تيلسيت فى أقل الأيام ملاءمة لرفع التماس دينيزوف . لم يكن يسعه أن يذهب بنفسه إلى الجنرال المرافق للامبراطور ، فقد كان يرتدى الزى المدنى ، وقد أتى إلى تيلسيت دون إذن ، ولا كان بوريس يستطيع ذلك ، فى اليوم التالى ، حتى لو كان يريده . فى ذلك اليوم السابع والعشرين من يونيو وُقّعت معاهدة الصلح الأولية . وتبادل الامبراطوران الأوسمة : تلقى الكسندر صليب «اللجيون دونور» وتلقى نابليون نوط القديس أندرو من الدرجة الأولى ، وفى المساء أعدت كتيبة من الحرس الفرنسى عشاءً لكتيبة بريوبرازينسك . وكان حضور الامبراطورين منتظراً فى المأدبة .

كان روستوف يحس فى محضر بوريس بالقلق وجفوة الراحة حتى

تظاهر بالنوم عند ما أطل هذا عليه بعد العشاء ، ومضى فى بكرة اليوم التالى ، متحامياً أن يلتقى به . وطاف بالمدينة فى زيه المدنى ، وقبعة مدوّرة ، يحملق إلى الفرنسيين وحللهم الرسمية ، إلى الشوارع ، وإلى المنزلين اللذين كان يقيم بهما الامبراطور الروسى والامبراطور الفرنسى . ورأى فى أحد الميادين موائد تمد ، وترتيبات تعد للعشاء ، ورأى الأعلام الروسية والفرنسية معلقة من أحد جانبي الشوارع إلى الجانب الآخر . وعليها الحروف الضخمة : « أ » و « ن » وفى نوافذ البيوت أيضاً رأى الأعلام منشورة .

كان يدور فى فكره :

— إن بوريس لا يريد أن يساعدنى ، ولست أريد أن أطلب منه ذلك . هذا مفروغ منه فقد انتهى كل ما بيننا . ولكننى لن أبرح هذا المكان حتى أفعل كل ما يسعنى فعله فى سبيل دينيزوف ، ولن أبرحه قطعاً حتى أسلّم خطابه للامبراطور . الامبراطور ..! إنه هنا ..!

كان قد عاد ، دون أن يحس ، إلى البيت الذى كان ينزل به ألكسندر .

كانت أمام البيت جيادٌ مسرجة ، وكانت الحاشية تتجمع ، استعداداً لخروج الامبراطور ، فيما هو واضح .

خطر لروستوف :

— قد أراه الآن ، فى أية لحظة . لو أننى استطعت فقط أن أسلّم الخطاب إليه مباشرة ، وأخبره بكل شىء ... أيستطيعون حقاً أن يقبضوا علىّ لارتدائى الملابس المدنية ..؟ لا ، قطعاً ..! إنه سيدرك فى أى جانب تقع العدالة . إنه يدرك كل شىء ، ويعرف كل شىء . من ذا الذى فى طاقته أن يفوقه كرماً وطيب شمائل..؟ بل لو أنهم قبضوا علىّ ، لوجودى هنا ، ففيم يهم ذلك ..؟

وهو ينظر إلى ضابط يدخل إلى البيت الذى يشغله الامبراطور .

— إن الناس يدخلون ، فى نهاية الأمر .. هذا كله لغو ..! سأدخل

وأسلّم الخطاب للامبراطور بنفسى ، لا حاجة بى إلى درو بيتسكوى هذا الذى يدفعنى إلى ذلك دفعاً ..!

وفجأة ، بتصميم لم يكن ينتظره من نفسه ، تحسس الخطاب فى جيبه ، وذهب إلى البيت مباشرة .

ودار فى ذهنه ، وهو ينتظر أن يلقى العاهل فى أية لحظة ، ويحس الدم يندفق إلى قلبة ، لمجرد الفكرة :

— لا ، لن أخطىء الفرصة الآن كما فعلت بعد أوسترلتز . سأركع تحت قدميه ، وأتوسل إليه . سيرفعني ، ويصغى إلى ، بل ويشكرنى .

وتخيله روستوف يقول « يسعدنى أن أستطيع فعل الخير ، أما أكبر السعادة ففى رفع الظلم » .

ومر روستوف بأناس نظروا إليه بتطلع وفضول ، ودخل شرفة بيت الامبراطور .

كان ثم سلم عريض يفضى من المدخل إلى الطابق العلوى مباشرة . وتحت السلم باب يفضى إلى الطابق الأرضى .

سأله أحد الناس :

— من تريد ..؟

قال بوريس وصوته يختلج :

— لأسلم خطاباً ، التماساً ، لصاحب الجلالة .

— التماس ؟ من هنا ، إلى الضابط النوبتجى (وأشير عليه إلى الباب الذى يفضى إلى الطابق السفلى) إلا أنه لن يُقبل .

وعند ما سمع روستوف ذلك الصوت الذى لا اهتمام فيه ، اعتراه الخوف مما يفعل .

كانت فكرة الالتقاء بالامبراطور فى أية لحظة قد بلغ من سحرها عليه ، وترويعها له ، أن كان على أهبة الهرب ، لكن الموظف الذى

سأله فتح له الباب ، ودخل روستوف .

كان يقف فى الغرفة رجل بدين قصير القامة ، فى زهاء الثلاثين من عمره ، يرتدى بنطلوناً أبيض ، وحذاء عالياً ، وقميصاً من الباتيستة ، لبسه فيما هو واضح على التو ، وكان وصيفه يزرر على مؤخرة البنطلون حمالة جديدة أنيقة موشاة بالحرير استرعت انتباه روستوف ، لسبب ما . وكان هذا الرجل يخاطب آخر فى الغرفة المجاورة ، قائلاً :

— جسم حسن ، وفى زهرة شبابها ...

فلما رأى روستوف كف ، وعبس :

— ما هذا ..؟ التماس ..؟

فسأله الآخر من الغرفة المجاورة :

— ما هذا ..؟

أجابه الرجل ذو الحمالة :

— شخص آخر يرفع التماساً .

— قل له أن يأتى فيما بعد . سيخرج الآن حالاً ، يجب أن نذهب .

— فيما بعد .. فيما بعد .. غداً ..! تأخر الوقت ...

فاستدار روستوف ، وهم بالخروج ، ولكن الرجل ذا الحمالة أوقفه :

— عمن أتيت ..؟ من أنت ..؟

قال روستوف :

— أتيت عن الماچور دينيزوف .

— أنت ضابط ..؟

— الملازم الكونت روستوف .

— يا لها من جرأة .. سلم الالتماس عن طريق قائدك ، واذهب أنت .. اذهب .

وراح يكمل ارتداء حلته التى يقدمها له الوصيف .

عاد روستوف إلى القاعة ، ولاحظ أن بالشرفة كثيراً من الضباط والچنرالات فى زى الاستعراض الكامل ، وكان عليه أن يمر بهم .

فلعن تهوره ، وغاص قلبه لفكرة أن يجد نفسه ، فى أية لحظة ، وجهاً لوجه بإزاء الامبراطور ، وأن يلحق به العار فى محضره ، ويقبض عليه أمامه ، وقد أدرك الآن حق الإدراك كل ما يعوز سلوكه من لياقة ، وندم عليه ، وأخذ يشق طريقه خارجاً من البيت ، وقد غض بصره ، فى وسط الحاشية اللامعة الباهرة ، وإذا بصوت مألوف يناديه ، ويدٍ تحتجزه ، وسأله صوت عميق :

— ماذا تفعل هنا ، يا سيدى ، بالزى المدنى ..؟

كان ذلك چنرالاً من الفرسان قد حظى بعطف الامبراطور فى أثناء الحملة ، وكان يقود ، فيما سبق ، الفرقة التى كان فيها روستوف .

فأخذ روستوف يبرر وجوده ، وهو جزع ، لكنه لما رأى وجه الچنرال العطوف الدمث ، انتحى به جانباً وأخبره بالمسألة كلها بصوت مهتاج ، وطلب منه أن يتوسط عن دينيزوف لدى الامبراطور ، وقد كان الچنرال يعرف دينيزوف . سمع الچنرال قصة روستوف حتى النهاية ، ثم هز رأسه وقد بدا عليه الجد :

— إننى آسف ، آسف له ، إنه فتى حسن الخلق . اعطنى الخطاب .

وما كاد روستوف يعطيه الخطاب ، ويفرغ من شرح قضية دينيزوف ، حتى سُمعت على السلم خطوات عجلة ، وصلصلة مهاميز ، وتركه الچنرال ومضى إلى الشرفة . جرى السادة من حاشية الامبراطور يهبطون السلم ، ومضوا إلى جيادهم . وكان هاين يقود حصان الامبراطور ، وهو نفس السائس الذى كان فى أوسترلتز ، وسُمع على السلم وقع خطى خافتة عرفها روستوف على الفور . فاقترب روستوف من الشرفة ، مع بعض المدنيين المتطلعين ، وقد ذهل عن الخطر الذى يتهدده لو أنه عُرف ، ورأى ثانية ،

بعد سنتين ، هاته القسمات التي يعبدها . نفس الوجه ، ونفس النظرة ، ونفس الخطوة ، ونفس المزاج من الجلال والوداعة ... وثار في نفسه نفس إحساس الحماس والحب للملك ، بكل قوته السالفة . خرج العاهل إلى الشرفة ، يرتدي زي فرقة بريوبرازينسك - بنطلون من الشاموا الأبيض وحذاء عالٍ ، وعلى صدره نجمة لم يكن روستوف يعرفها ، هي نجمة « اللجيون دونور » ، وهو يلبس قفازه ، ويضع قبعته تحت ذراعه . وقف ، ونظر حواليه ، فأضاء كل شيء حوله من نظرته . وقال لبعض الچنرالات كلمات قلائل ، وعرف قائد فرقة روستوف السابق ، فابتسم ، ودعاه إليه .

فتراجعت الحاشية كلها ، ورأى روستوف أن الچنرال تحدث إلى الامبراطور بعض الوقت .

قال له الامبراطور كلمات قلائل ، وخطا ناحية جواده . فاقترب حشد الحاشية والمتطلعين ، وبينهم روستوف ، مرة أخرى ، من الامبراطور . وقف الامبراطور بجانب جواده ، ويده إلى السرج ، والتفت إلى چنرال الفرسان ، وقال بصوت مرتفع ، ومن الواضح أنه يرغب أن يسمعه الجميع:

— لا أستطيع أن أفعل ذلك يا چنرال . لا أستطيع لأن القانون أعلى مني .

ورفع قدمه إلى ركاب السرج .

فأحنى الچنرال رأسه باحترام . وركب العاهل خبباً على طول الشارع . وجرى روستوف خلفه مع الجمهور ، وقد جاوز به الحماس طوره .

الفصل الحادي والعشرون

ركب الامبراطور إلى الميدان الذي كانت تقف فيه كتيبة من فرقة بريوبرازينسك إلى اليمين ، وكتيبة من الحرس الفرنسي ، في قلنسواتهم

المتخذة من جلد الدب ، إلى اليسار . وإحداهما تواجه الأخرى .

وعند ما كان القيصر يركب حتى يبلغ جانباً من الكتيبة ،كان هذا الجانب يحييه بالسلاح ، وكانت طائفة من الفرسان تعدو إلى الجانب المواجه ، عرف روستوف نابليون على رأسهم . فلم يكن من الممكن أن يكون غيره . جاء يعدو على جواده ، يرتدى قبعة صغيرة ، وحلة زرقاء مفتوحة عن صديرى أبيض ، ونوط القديس أندرو على كتفه . كان يركب جواداً عربياً أصيلاً أشهب فائق الحسن ، على سرجه كسوة قرمزية موشاة بالذهب. فلما اقترب من ألكسندر رفع قبعته . ولم يملك روستوف ، بنظرة الفارس المحنك ، إلا أن يلحظ أن نابليون لم يكن يجيد الركوب ولا هو متمكن من سرجه ، عند ما رفع قبعته . صاحت الكتيبتان ، الروسية منهما : « هورّا ..! » والفرنسية : « يعيش الامبراطور ..! » وقال نابليون لألكسندر شيئاً ، وترجل الامبراطوران ، وتصافحا . كان على وجه نابليون ابتسامة منفرة متكلفة . وكان إلكسندر يقول له ، بودّ ، شيئاً ما .

وعلى الرغم من سنابك خيل الشرطة الحربية الفرنسية التى كانت تدفع الجمهور وتصده ، أبقى روستوف عينيه شاخصتين إلى كل حركة يأتيها ألكسندر أو بونابرت . واسترعاه، وبغته ، أن ألكسندر يعامل بونابرت معاملة الندّ ، وأن الأخير مطمئن مرتاح فى محضر القيصر ، كما لو كانت مثل هذه العلاقات مع الأباطرة شيئاً مألوفاً يعرض له كل يوم .

أقبل الكسندر ونابليون ، تتبعهما قافلة طويلة من حاشيتهما ، فاقتربوا من الجناح الأيمن لكتيبة بريوبرازينسك ، واتجهوا مباشرة إلى الجمهور المحتشد فى ذلك الموضع . ووجد الجمهور نفسه ، على غير انتظار ، قريباً من الامبراطورين ، حتى جزع روستوف ، وهو يقف فى الصف الأول ، من أن يعرفه أحد .

قال صوت ثاقب ، مدقق ، يضغط ويؤكد كل حرف مما يقول :

— ياصاحب الجلالة، إننى أطلب الإذن منكم أن أقدم «اللجيون دونور» لأشجع جنودك .

قال ذلك ناپليون بقامته القصيرة ، وهو يرفع بصره مواجهة إلى عينى ألكسندر . فأصغى ألكسندر بانتباه إلى ما قيل له ، وأحنى رأسه وابتسم ابتسامة لطيفة .

استطرد ناپليون ، يضغط كل حرف مما يقول ، وهو يدير عينيه — برباطة جأش و ملاكٍ للنفس بلغ منها أن استشاط روستوف حنقاً — يتفحص الصفوف الروسية القائمة أمامه ، وقد حيّت بالسلاح ، شاخصة بالبصر إلى إمبراطورها .

فقال :

— لذلك الذى أبدى أعظم قدر من الشجاعة فى هذه الحرب الماضية .

قال ألكسندر :

— أتسمح لى جلالتك أن أستشير الكولونيل ..؟

وخطا بضع خطوات عجلة صوب الأمير كوزلوڤسكى قائد الكتيبة .

وفى هذه الأثناء أخذ بونا رت يخلع قفازه عن يده الصغيرة البيضاء ومزقه فى أثناء ذلك ، وألقاه بعيداً . فاندفع إلى القفاز ياور من ورائه ، والتقطه .

سأل الامبراطور ألكسندر كوزلوڤسكى بصوت خفيض ، بالروسية :

- لمن يُعطى ..؟

— لمن تأمر جلالتكم أن يعطى إليه .

فعقد الامبراطور حاجبيه فى غير رضى، وألقى نظرة إلى الخلف قائلا

— ولكن علينا أن نرد .

فتفحص كوزلوڤسكى الصفوف ، بتصميم وعزم ، وأدخل روستوڤ فى دائرة فحصه .

فخطر لروستوف :

— أيمكن أن أكون أنا . ؟

نادى الكولونيل عابساً :

— لازاريف . . !

فخطا لازاريف ، أول جندى فى الصفوف ، إلى الأمام بنشاط .

تهامست أصوات بلازاريف الذى لم يكن يعرف أين يتجه :

— إلى أين تذهب . ؟ قف هنا . !

فوقف لازاريف ، وهو يلقى نظرة جانبية إلى قائده ، فى جزع . واختلج وجهه ، كما يحدث ، فى الغالب ، للجنود الذين يستدعون أمام الصفوف .

أدار نابليون رأسه بحركة هينة . ومد يده الصغيرة البضة أمامه كمن يأخذ شيئاً . فحدس أعضاء حاشيته ما يريد على الفور ، وتحركوا ، وتهامسوا ، وهم يمررون شيئاً بينهم . وجرى وصيف — هو بعينه الذى رآه روستوف عند بوريس فى المساء السابق — وانحنى باحترام على اليد الممدودة ، ولم يبقها بالانتظار لحظة واحدة بل وضع فيها نوطاً ذا شريط أحمر . ضم نابليون إصبعين معاً ، دون أن ينظر ، فكان الشريط بينهما. ثم اقترب من لازاريف ، فدحرج هذا عينيه ولبث يشخص بالنظر ، بإصرار ، إلى إمبراطوره ، ونظر نابليون إلى الامبراطور ألكسندر ، ليومىء إليه أن ما يفعل الآن إنما يفعله من أجل حليفه ، ومست اليد الصغيرة البيضاء التى تمسك بالنوط أحد أزرار سترة لازاريف . كان يلوح أن نابليون يعرف أن ليست بيده حاجة إلا أن تنزل فتمس صدر الجندى حتى يسعد ذلك الجندى أبداً ، ويثاب ، ويمتاز عن كل من عداه فى العالم . لم يفعل نابليون إلا أن وضع الصليب على صدر لازاريف ، بمجرد أن مسه ، وأسقط يده والتفت إلى ألكسندر ، كما لو كان على يقين من أن الصليب

سيلتصق بموضعه . وهو ما حدث بالفعل .

فامتدت أيد خفية ، من الروس والفرنسيين . وأمسكت بالصليب على الفور ، وثبتته بالسترة . فنظر لازاريف ، في جهامة ، إلى الرجل الصغير الجسم ذي اليدين البيضاوين الذي كان يصنع به شيئاً ، ولبث واقفاً بلا حراك يرفع سلاحه بالتحية ، ونظر ثانية إلى عيني ألكسند مواجهة كمن يسأل ما إذا كان ينبغي له الوقوف في مكانه أو الذهاب أو أن يفعل شيئاً آخر . فلما لم يتلق أمراً لبث في ذلك الوضع المتصلب بعض الوقت .

ركب الامبراطوران ، ومضيا . وتفرقت صفوف كتيبة بريوبرازينسك واختلطت بالحرس الفرنسيين ، وجلسوا جميعاً إلى الموائد المعدة لهم .

جلس لازاريف في مكان الشرف . عانقه الضباط الروس والفرنسيون وهنأوه ، وضغطوا يديه . واقتربت جماهير من الضباط والمدنيين ، حتى يروه . وملأ الجو هدير من الأصوات الروسية والفرنسية ، والضحك حول الموائد في الميدان . ومر بروستوف ضابطان تضرج وجهاهما ، وبدت عليهما السعادة والبهجة .

كان أحدهما يقول :

ــ ما رأيك في هذا ..؟ كل شيء على طبق من الفضة . هل رأيت لازاريف ..؟

ــ نعم .

ــ سمعت أن كتيبة بريوبرازينسك ستقدم لهم عشاء غداً .

ــ نعم ، يا له من حظ ناله لازاريف . معاش من ألف ومائتي فرنك سنوياً .

صاح أحد جنود بريوبرازينسك ، وهو يرتدي قلنسوة فرنسية مشعثة:

ــ ها هي ذي قلنسوة يا أولاد ..!

ــ عظيم ..! درجة أولى ..!

سأل أحد ضباط الحرس آخر :

ــ أسمعت كلمة السر ..؟ أول أمس كانت «ناپليون، فرنسا ،الشجاعة» وأمس كانت « ألـكسندر ، روسيا ، العظمة» . امبراطورنا يعطيها يوماً ، وناپليون يعطيها فى اليوم التالى . غداً سيرسل امبراطورنا صليب القديس أندرو لأشجع جندى من الحرس الفرنسيين . يجب أن يفعل هذا . يجب أن يرد بالمثل .

وجاء بوريس أيضاً مع صديقه زيلينسكى ليشهد مأدبة فرقة بريوبرازينسك ، وفى عودته رأى روستوف يقف عند ركن أحد البيوت .

قال :

ــ روستوف ..! كيف حالك ..؟ لم ير أحدنا الآخر .

ولم يملك إلا أن يسأل ماذا جرى ، فقد كان وجه روستوف يبدو بالغ الاضطراب والجزع والغرابة .

أجاب روستوف :

ــ لا شىء ، لا شىء .

ــ ستأتى ..؟

ــ نعم ، سأفعل .

وقف روستوف عند ذلك الركن طويلاً ، يرقب المـادبه من بعيد . كانت تجرى فى ذهنه عملية مؤلمة لم يكن فى طاقته أن يفضى بها إلى نتيجة . ثارت فى روحه شكوك وريب مروّعة . كان يتذكر دينيزوف ، حيناً ، وتعبيره ذاك المتغيّر ، وخضوعه ، والمستشفى بأسره وفيها تلك الأرجل والأذرع المزقة المبتورة ، وقذرها ، والمرض المتفشى فيها واستعاد ذلك العفن الناجم عن اللحم الميت بقوة بلغ منهـا أن التفت يبحث عن مصدر الرائحة . ثم كان يفكر، حيناً آخر ، فى بونابرت ذلك الراضى عن نفسه ، بيده الصغيرة البيضاء ، وهو الآن إمبراطور ، يحبه ويحترمه ألـكسندر .

ففيم إذن هذه الأرجل والأذرع المبتورة ، وهؤلاء الموتى ..؟ ثم يفكر حيناً ثالثاً ، فى لازاريف وقد أثيب ، ودينيزوف وقد عوقب ولم يحصل على العفو . وألفى نفسه تهجس بخواطر أفزعته .

استرجعته من هـذه التـأملات رائحة الطعام الذى يأكله جنـد بريوبرازينسك ، وحسّـه بالجوع . كان عليه أن يتناول شيئاً من الطعام قبل أن يمضى . فذهب إلى فندق كان قد رآه فى الصباح . وهناك وجد كثرة من الناس ، بينهم ضباط جاءوا مثله فى الزى المدنى ، حتى شق عليه أن يحصل على غدائه . وانضم إليه ضابطان من فرقته . ودار الحديث بالطبع عن الصلح . كان الضابطان زميلاه ، شأنهما شأن الجانب الأكبر من الجيش كارهين للصلح ، إذ انعقد بعد موقعة فرايدلاند . وقالا أننا لو لبثنا زمناً أطول بقليل لانتهى أمر نابليون ، فلم يكن لقواته مؤن ولا زاد . وكان نيكولاس يأكل ، ويشرب ـ يشرب على الأخص ـ صامتاً . وأتى وحده على زجاجتين من النبيذ . ومضت تلك العملية فى ذهنه تعذبه وتُضنيه ، دون البلوغ إلى نتيجة . وكان يخشى أن يستسلم لأفكاره ، لكنه لا يستطيع أن يخلص منها . وفجـأة ، قال أحد الضابطين أن من المذل أن ينظر المرء إلى الفرنسيين ، فأخذ روستوف يهتف بحمـيّا وحرارة لا موضع لها ، دهش لها الضابطان ، من ثم ، أكبر الدهشة ، هتف روستوف ، والدم يندفع فجأة إلى وجهه :

ـ كيف نحكم على ما هو الأفضل ؟ كيف نحكم على أعمال الامبراطور ؟ بأى حق نجادل نحن ..؟ ليس بمقدورنا أن نفهم لا أغراض الامبراطور ، ولا أعماله ..!

قال الضابط يبرر نفسه ، وقد عجز عن أن يفهم فيم انفجار روستوف ، إلا على فرض أنه سكـر :

ـ لـكنى لم أقل كلمة واحدة عن الامبراطور ..!

على أن روستوف لم يلق إليه سمعاً ، ومضى يقول :

ــ لسنا دبلوماسيين ، نحن جنود ، لا أكثر . فإن أمرنا أن نموت علينا أن نموت . وإن عوقبنا فذلك يعنى أننا استحققنا العقاب ، وليس لنا أن نرى فى ذلك رأياً . لو راق للامبراطور أن يرى فى بوناپرت امبراطوراً وأن يعقد معه حلفاً . فذلك يعنى أن هذا هو الشىء الصواب . لو أننا بدأنا ، ولو مرة واحدة ، نرى الآراء ، ونجادل فى كل شىء ، ما بقى شىء مقدس .. سنقول إذن إنه لا يوجد إله .. لا شىء ..!

وهو يهتف ، ويخبط المائدة ، ويقول أشياء لا صلة لها بالموضوع ، فيما يبدو لمستمعيه ، وإن كانت قريبة الصلة بمجرى أفكاره ، مترتبة عليه . قال :

ــ إن علينا أن نؤدى واجبنا ، أن نحارب ، ولا نفكر ..! هذا كل شىء ...

فقال أحد الضابطين ، وقد عزف عن العراك :

ــ وأن نشرب .

فوافق نيكولاس :

ــ نعم وأن نشرب .

وصاح :

ــ هيه .. هناك ..! زجاجة أخرى ..!

الفصل الثانى والعشرون

فى سنة ١٨٠٨ ذهب الامبراطور ألكسندر إلى إيرفورت ليلتقى من جديد بالامبراطور ناپليون ، ودار فى الأوساط العليا ببطرسبرج حديث كثير عن عظمة هذا اللقاء الهام .

وفى سنة ١٨٠٩ بلغ من توثق الصداقة بين «حكمى العالم» كما كان يدعى نابليون وألكسندر ، أنه عند ما أعلن نابليون الحرب على النمسا ، عبر آلاى روسى الحدود ليعاون عدونا القديم بونابرت على حليفنا القديم امبراطور النمسا . ودار حديث فى أوساط البلاط عن إمكانية الزواج بين نابليون وإحدى أخوات ألكسندر . على أن اهتمام المجتمع الروسى ، فى ذلك الحين ، فضلا عن اعتبارات السياسة الخارجية ، كان منصباً على التغيرات الداخلية التى أخذ بها فى كل الإدارات الحكومية

وفى هذه الأثناء ، كانت الحياة ــ الحياة الحقيقية . بهمومها الجوهرية فى الصحة والسقم ، والكدح والراحة ، وهمومها العقلية فى الفكر ، والعلم ، والشعر ، والموسيقى، والحب ، والصداقة، والبعض، والشهوات ــ كانت الحياة تمضى ، شأنها ، مستقلة منفصلة عن الصداقة أو العداوة السياسية بإزاء نابليون بونابرت ، وبعيدة عن كل خطط ومشاريع الإصلاح

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٨٢١

I.S.B.N 977-01-4385-5

مطابع ال... للكتا...

٢٧٥ قرشـــا